



قرازیلا

تأليف
لوحايرتدين

ترجمه
نجيب السكاوي
مؤيد عثمان
راجعه
الدكتور محيى الحساب



جرازيلا

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة -
وزارة التربية والتعليم
بالتعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

جرازِیلا

لامسارتین

ترجمہ
نجیب المسکناوی جودت عثمان

راجعه
الدکتور یحییٰ بخشا

ملتزم الطبع والنشر
دار الفکر العربی

۱۹۶۱

هذه ترجمة كتاب :

GRAZIELLA

تأليف

A. DE LAMARTINE

إفصل الأول

- ١ -

في الثامنة عشرة من عمري ، عهدي في أسرتي إلى إحدى قريباتي التي استدعتها بعض الشئون إلى توسكانيا ، حيث ذهبت برفقة زوجها . وكانت هذه فرصة لحلي على الترحال ، وانتشالي من الفراغ الخطر في بيت الأسرة والمدن الريفية حيث تفسد بواكير شهوات النفس لانهدام النشاط . فرحلت متحمسا حماس الطفل الذي يتوقع أن يرى الستار يرتفع عن أروع مشاهد الطبيعة والحياة .

جبال الآلب ، التي كنت من بعيد ، منذ طفولتي ، أرى تلوجها الأزلية تأتلق في نهاية الأفق ، من ذرى تلال مي ، والبحر الذي كان الرحالة والشعراء قد رسخوا في ذهني كثيراً من صوره الباهرة ، والسماء الإيطالية التي كنت ، إن جاز القول ، قد استروحت دفتها وصفاءها في صفحات كورين وفي أشعار جوته :

هل تعرف تلك الربوع التي يزدهر فيها الريحان ؟

وآثار قدماء الرومان التي ما برحت قائمة ، والتي كانت دراستي لها قريبة العهد تملأ فكري ، ثم الحرية ، والمدى الذي يضفي على بعيد الأشياء

هيمية ، والمغامرة ، وما فى طول الرحلات من أحداث محققة يتنبأ بها
الخيال الشاب تنبؤا ، ويجد فى ترتيبها متعة ، بل يستمتع بها سلفا ،
وتغيير اللغة والوسوء والأخلاق ، الذى يبدو كأنه يظهر العقل على دنيا
جديدة : كل ذلك يسحر ذهنى سحرأ .

عشت فى حالة نشوة متصلة خلال أيام الانتظار الطوال التى سبقت
الانرحال ، هذه النشوة التى كانت تتجدد كل يوم بفضل روائع الطبيعة
فى سافوى ، وسويسرا ، وبحيرة جينيف والنوح سبلون وبحيرة كومو ،
وميلانو ، وفلورنسة ، هذه النشوة لم تخف حدتها إلى حين عودتى .

ولإذ تشعبت الشؤون التى دعت رفيقتى إلى السفر إلى ليفورن ، فقد
جرى الحديث فى شأن إعادتى إلى فرنسا دون أن أرى روما ونابولى ،
وكان ذلك بمثابة انزعاج حلى منى لحظة أن كدت أحققه ، فثرت فى ذهيلى
على مثل هذه الفكرة . وحررت إلى أبى أسأله أن يأذن لى بمواصلة
السفر فى إيطاليا وحدى . ودون أن أنتقل الرد الذى لم يراودنى الأمل
فى أن يكون موافقا ، قررت أن أسبق إلى شق عصا الطاعة . قات فى
نفسى : إن جاء الرفض فسيجئ منأخرأ . سيلومونى ولكن سيصفحون
عنى . وسأعود ولكن بعد أن أكون قد شاهدت ، . . وراجعت
عاليقى المحدودة ، بيد أنى وضعت فى الحسبان أن لأمى قريبا مقبلا فى
نابولى ، وأنه ان يأبى مدى ببعض النقود للعودة . وذات ليلة جميلة
رحلت من ليفورن عن طريق روما .

وأنفقت فيها الشتاء بمفردى فى غرفة صغيرة فى شارع معتم يطل
على ميدان أسبانيا ، لدى رسام رومانى اتخذنى نزىلا فى أسرته . وكان
حياى وشبابى وحماسى وانفرادى وسط بلد غريب قد أثار اهتمام

أحد رفاق سفري في الطريق من فلورنسة إلى روما ، وقد نشأت بيننا صداقة على الفور ، كان شابا وسيما يناهزني في العمر ، ويبدو أنه كان ابن أو ابن أخي - المغنى الشهير دافيد ، الذى كان حينئذ المغنى الأول ، فى مسارح إيطاليا . وكان دافيد يرسل معنا أيضاً . وكان رجلا قد تقدمت به السن . وكان ذاهبا ليغنى لآخر مرة على مسرح سان شارل فى نابولى .

كان دافيد يعاملنى معاملة الأب لابنه ، وكان رفيقه الشاب يغمرنى بلطفه وعطفه . وكنت أرد على هذه المجاملات بما يقترب من عدم اكتراث وسداجة . ولم نكمد نصل إلى روما حتى أمسيت أنا والمسافر الوسم صديقين لا يفترقان . ولم تكن العربية وقتذاك تقطع المسافة بين فلورنسة وروما فى أقل من ثلاثة أيام . وفى الفنادق كان صديق الجديد ترجمانا لى ، وعلى المائدة كان يقدمنى فى اغتراف الطعام ، وفى العربية كان يحتجز لى بجواره أفضل مكان ، وإذا غفوت فوقنا أن كشفه ستكون وسادة لرأسى .

وعندما كنت أنزل من العربية فى المطالع الطويلة بتلال توسكانيا أو ساينا كان ينزل معى ، ويشرح لى البلد ، ويطلعنى على أسماء المدن ، ويدلنى على الآثار . بل إنه كان يقطف الزهر البديع ويشترى الطبيب من التين والعنب فى الطريق ، ويملا يدى وقبعته بتلك الثمار . وكان يلوح أن دافيد يرقب بسرور عاطفة رفيقه فى السفر نحو الاجنبي الشاب . وكانا فى بعض الأحيان يتبادلان الابتسام وهما ينظران لى فطرة تم عن التفاهم والرقه واللطف .

ولما بلغنا روما فى الليل ، اختلفت معهم بطبيعة الحال إلى فندق

واحد . وأرشدت إلى غرفتي ، ولم أستيقظ إلا على صوت صديق الشاب يطرق الباب ، ويدعوني إلى تناول الإفطار فارتدت ثيابي على عجل ، ونزلت إلى البهو حيث يجتمع السياح . وهممت أن أصافح يد رفيقي في السفر ، وعبثاً جلت بعيني بحثاً عنه بين الزلاء ، وإذا بجميع الحضور ينفجرون في قهقهة عالية . فبدلاً من ابن دافيد أبصرت بجانبه فتاة رومانية ساحرة الحياء ، أنيقة الملبس .

وكان شعرها الخالك ، المقوص حول جبينها ، مشدوداً إلى الخلف جذوسين طويلين من ذهب ، رأساهما من لؤلؤ ، على طريقة فلاحات تيفولي . وكانت هي صديقي الذي استعاد لدى وصوله إلى روما جنسه وملا بسبه .

كان ينبغي أن أشقيه في رقة نظرتها وفي جمال بسمتها . بيد أنني لم يساورني في ذلك أي شك . قالت لي الرومانية الحسناء وقد تورد وجهها خجلاً : إن الثوب لا يغير القلب ، وكل ما في الأمر أنك إن تنام على كتفي ، وبدلاً من أن تتلقى مني الزهور فأنت الذي سوف تهديني إياها . وستعجبك هذه المغامرة ألا تثق فيما بعد فيما بهدي لك من مظاهر الصداقة ، فقد تكون شيئاً آخر .

كانت الفتاة مغنية : تلبذة دافيد المفضلة . وكان المغني العجوز يحضنها في كل مكان ، ويلبسها في الطريق ملابس الرجال تفادياً للقليل والقال . وكان يعاملها كأبها ، ولم تكن تتخالجه الغيرة قط بسبب الألفة البريئة التي سمح هو أن تنشأ بيننا .

أففق دافيد وتلميذته بضعة أساييسع في روما . وغداة وصولنا
جاءت إلى ملابس الرجال ، واقتادتني أول الأمر إلى سان بيير ، ثم إلى
الكوليزيوم ، وفراسكاتي ، تيفولي ، وألبانو ، وكذلك تفاديت
التكرار المصنئ من جانب الأدلاء المأجورين الذين يشرحون
للسياح جسد روما ، والذين يوشون المشاعر بدياناتهم المملة عن أسماء
الاعلام والنوارىخ ، فيشغلون الفكر ويحولون الإحساس عن الجميل من
الاشياء . لم تكن كامبلا عالمة ، بيد أنها ولدت في روما فكانت تعرف
بالغريزة المناظر الجميلة والمشاهد العظيمة التي أثرت في نفسها إبان
طفولتها .

كانت تقتادني دون إعمال فكر إلى خير البقاع وفي خير الأوقات
للتنأمل في أطلال المدينة العتيقة : في الصباح في كنف أشجار الصنوبر
ذات القباب الضخمة في جبل مونت بنشيو ، وفي المساء تحت ظلال
أعمدة سان بيير ، وفي ضوء القمر إلى الكوليزيوم الساكن ، وفي
أيام الخريف الجميلة إلى ألبانو ، وفراسكاتي ، ومعبد السبيل الذي
يتردد في جنباته ويسيل في أنحائه بخار شلالات تيفولي ، كانت مرحلة
نزقة كأنها تمثال للشباب الخالد ينتصب وسط أطلال الزمن والردى
هذه . كانت ترقص على مقبرة سيسيليا متيلا ، وحينما كنت أجلس
حالما فوق حجر ، كانت تجعل قباب قصر ديوكسيا الأنيقة تردد صدى
نبرات صوتها المسرحي .

وفي المساء كننا نعود إلى المدينة وعربتنا مليئة بالزهور ومخلفات

التمثيل للحق بدافيد العجوز ، الذى كانت شؤنه تستيقه فى روما ،
والذى كان يقتادنا إلى مقصوده اختتامه لليوم . ولم تكن المغنيه التى
تكبرنى ببضع سنوات تظهر لى من المشاعر إلا صداقة رقيقة . وكنت
أبلغ من الحياء مالا أستطيع معه أن أبدى لها مشاعر أخرى ، بل لى
حتى لم أشعر بها بالرغم من شبابه وجمالها . فإن زى الرجال الذى
ترتديه ، وألفها معى ألفه الرجال ، ونغمة صوتها السكونى ألتو
الرجولى ، وتحرر سلوكها ، كل ذلك كان يترك فى نفسى أثرا بلغ من عمقه
أنى لم أرفها سوى شاب جميل : رفيق وصديق .

- ٣ -

عندما سافرت كامبلا ، مكثت وحدى فى روما ، دون أى خطاب
توصية ، ولا أى معارف سوى ما عرفتني به كامبلا من مواقع وآثار
وأطلال . ولم يكن الرسام العجوز الذى أقمت عنده يخرج قط من
مرسمه إلا ليذهب يوم الأحد إلى القديس مع زوجته وابنته ، وكانت
فتاة فى السادسة عشرة نشطة مثله . وكان يبتهم أشبه بالدير حيث لا يقطع
عمل الفنان إلا وجبة شهية أو صلاة .

وفى المساء ، عندما تنطفئ أواخر أشعة الشمس على نوافذ غرفة
الفنان الفقير العالمية ، وتدق أجراس الأديرة المجاورة لحن د السلام
لك يا مريم ، وداع النهار الموسيقى هذا فى إيطاليا ، كانت التسليمه
الوحيدة للأسرة أن تصل وتسبح جماعة ، وأن تترنم بقراءة مستطيلة
من المزامير ، إلى أن تؤول الأصوات التى تضعها النعاس إلى

همس غامض مل أشبه بهمس الموج الذى يهدأ عند الشاطئ . حيث
تسكن الريح مع هبوط الليل .

كنت أحب مشهد المساء الساكن الورع هذا ، حيث ينتهى نهار
حافل بالعمل بهذه التسليحة لأرواح ثلاثة ترتفع إلى السماء لتستريح
من عناء اليوم . كان هذا يذكرنى ببيت أبى ، حيث كانت أمى تجمعنا
أيضاً فى المساء للصلاة ، حيناً فى غرفتها ، وحيناً فى المعرات الرملية
بجديقة مبي الصغيرة ، عند أضواء الشفق الأخيرة . وإذا وجدت نفسى
الاعادات والأفعال والدين ، كنت أشعر بأنى وسط هذه الأسرة الغريبة
أعيش تحت سقف بيت أبى . لم أرق حياة أمعن انطواء وورعا ،
وأكثر اعتسكافاً ونشاطاً ونظراً من حياة بيت الرسام الرومانى .

وكان للرسام أخ . ولم يكن هذا الأخ يقيم معه . كان يعلم اللغة
الإيطالية لذوى الحيثية من الأجانب الذين ينفقون الشتاء فى روما .
ولم يكن مجرد مدرس لغة ، فقد كان أديبا رومانيا من أول طراز .
وكان لا يزال فى عنفوان الشباب ، رائع القسما ، « قديم » الخلق ، بما
أهله للقيام بدور بارز فى محاولات الثورة التى قام بها الجمهوريون
الرومانيون لابتغاء الحرية فى ديارهم . كان أحد الزعماء الشعبيين ،
وكأنه « رينزى » ، هذا العهد . وفى هذا البعث القصير لروما العتيقة ،
الذى أذكاه الفرنسيون وأخذهم ماك وأهل نابولى ، لعب دورا من أهم
الأدوار ، فقد خطب فى الشعب فى السكابتول ، ورفع راية الاستقلال ،
وشغل مركزا من أهم المراكز فى الجمهورية . ولقد طورد ، واضطهد ،
وسجن أثناء الحركة العكسية ، ولم يحصل على أمته إلا بفضل مجيئ
الفرنسيين الذين أنقذوا الجمهوريين ، وإن قضوا على الجمهورية .

كان هذا الرومانى يعبد فرنسا الثورية والفلسفية ، ويمقت
الإمبراطور والإمبراطورية ، وكان بوناپرت عنده كما هو شأنه عند
كل الإيطاليين الأحرار قيصر الحرية . وكنت أنا أيضا فى ميعه
الشباب وإذا كانت تخالجنى المشاعر نفسها . وسرعان ما ظهرت بيننا
هذه المشاركة الفكرية ، وإذا شاهد مدى ما يعمل فى نفسى من حماس
قوار و رزين فى الوقت نفسه إزاء نفحات الحرية ، عند ما كنا نطالع
القصائد النارية للشاعر مواتى أو المشاهد الجمهورية لآيفيبرى ، فقد
رأى أنه يمكنه أن يفتح لى قلبه فتحا ، فأصبحت له صديقا أكثر منه
تلميذا .

— ٤ —

إن البرهان على أن الحرية هى المثل العلوى للإنسان ، هو أنها
أول أحلام الشباب ، وأنها لا تغيض من النفس إلا عندما يذوى
القلب وينحط الذهن أو يقنط . فها من نفس تبلغ العشرين عاما إلا
وتعتنق الجمهورية ، وما من قلب بال إلا ويتقبل العبودية .

كم من مرة ذهبت أنا وأستاذى لنجلس على تل فيلا بامفيل الذى
يرى المرء منه روما وقباها وخرائها ، والتيير ، نهرها الذى ينسرب
موحلا ، صامتا ، خجلان ، تحت قناطر بونت روتو المقوضة ،
حيث يسمع أنين عيونها الشاكية ، وخطوات أهلها الصامتة إذ يمشون
فى سكوت فى شوارعها المقفرة . كم من مرة ذرفنا دموعا مرة على مصير
هذه الدنيا المستقيمة لكل ضروب الظلم ، حيث كلما لاح أن الفلسفة

والحرية تحاولان أن تبعثا لحظة في فرنسا وإيطاليا طعنهما الطغاة ،
وخذلوهما ، وكتبوهما في كل مكان . كم من لعنة ندت من صدرينا
في صوت خفيض على طاغية الذهن البشرى هذا ، على هذا الجندي
المتوج الذي لم ينضم للثورة إلا ليستمد منها القوة لكي يدمرها ، ويسلم
الشعوب من جديد لكل صنوف الأباطيل والعبودية .

عندى أنه من هذا العهد يبدأ حب الناس لتحرير الذهن البشرى ،
ويبدأ ذلك البغض الفكري لبطل العصر هذا ، البغض المحسوس
والمعتول في وقت معا ، الذي يحققه ، التفكير والزمن ، بالرغم من
المضطهين في ذكره .



تحت تأثير هذه المشاعر درست روما ، تاريخها وآثارها . كنت
أخرج في الصباح وحدي ، قبل أن يتهاى لحيج المدينة أن يشغل فكري
المتأمل . وكنت أتا بط كتيب المؤرخين والشعراء ، وواصفى روما .
وكنت أجلس ، أو أتجول خلال أطلال الفورم ، والسكوليز يوم ..
ير الريف الروماني المقفرة . كنت تارة أشاهد ، وتارة أطلع وأفكر .
كنت أدرس روما دراسة عملية جادة .

كان هذا أفضل بحوثي في التاريخ . وبدلاً من أن يكون الزمن الغابر
مورثاً للضجر أصبح عندي عاطفة . ولم أنبغ في هذه الدراسة منهجاً
آخر سوى ميولي . فقد كنت أسير ، على غير هدى ، إلى حيثما تقودني
قدماي . وكنت أنتقل من روما العتيقة إلى روما الحديثة ، من الباشيون

إلى قصر ليون العاشر ، من بيت هوراس في «تيبور» إلى بيت رافائيل ،
الشعراء ، والرسميون ، والمؤرخون ، والعظماء : كان الجميع يمدونني
أمامي بلا ترتيب ، فلا أستوقف منهم هنية إلا من يستشير المزيد من
اهتمامي في ذلك اليوم .

وزهاء الساعة الحادية عشرة كنت أهود إلى «زناتى» الصغيرة
في منزل الرسام لتناول الإفطار . كنت أكل كسرة من الخبز وقطعة
من الجبن وأنا مختلف إلى المنضدة ، منكب على المطالعة . وكنت أشرب
قدحاً من اللبن ، ثم أعمل وأدون مذكراتي ، وأكتب حتى موعد الغداء .
وكانت تعدد لنا زوجة مضيقة وبنته بذاتيهما ، وكنت بعد الوجبة أقوم
بجولات أخرى ولا أعود إلا بعد انسداد الليل . وكانت بضعة ساعات
من الحديث مع أسرة الرسام ومن المطالعات المتوغلّة إلى هزيع متأخر من
الليل تختم هذه الأيام الهادئة . لم أكن أشعر بأى حاجة للاجتماع بالناس ،
بل كنت أستمتع بعزائي . كان حسبي روماً ونفسي وكذلك أنفقت
شتاء طويلاً بأكمله ، منذ شهر أكتوبر حتى شهر أبريل التالي ، دون يوم
من الملل أو الضجر . وإنه لعل ذكرى هذه الأحاسيس نظمت بعد مضي
عشر سنين قصيدة عن «تيبور» .

- ٦ -

والآن ، عندما أقلب جيداً في فكري كل ما خلفت روماً في
نفسي من أحاسيس ، لا أجد إلا اثنين يحوان الأحاسيس الأخرى .
جميعاً أو على الأقل يسيطران عليهما : الكوايزيوم ، تحفة الشعب الروماني ،
وسان بيير ، آية الكاثوليكية . إن الكوايزيوم أثر جباراً على شعبي فذخاؤه

كان يشيد إرضاء لتكبرياته وامتعه الوحشية آثارا يمكن أن تحتوى شعباً بأكمله ، آثارا تنافس من حيث الضخامة والاستدامة صنائع الطبيعة نفسها . . ولو أن نهر التيبر غاض بين ضفافه الحمئة لظل الكوليزيوم قائماً يشرف عليه .

أما سان بيير فهمى عمل فكر ، عمل دين ، عمل الإنسانية جمعاء في عصر من عصور الدنيا . فليس الأمر أمر عمارة مكرسة لاحتواء شعب موضوع . وإنما هي معبد مكرس لاحتواء الفلسفة كلها ، والصلوات كلها ، وعظمة الإنسان كلها ، وفكره كله . يبدو أن الجدران ترتفع وتتسع لابلقياس إلى شعب ما ، بل بالقياس إلى الإله . لقد فهم ميشيل أنجلو وحده الكاثوليكية وأعطاها في كنيسة سان بيير اسمى وأكمل تعبير . حقيقة إن سان بيير هي تأليه حجري بل تجميد أثرى لدين المسيح .

كان مهندسو الكاتدرائيات القوطية برابرة رائعين . أما ميشيل أنجلو فكان وحده فلبسوها في تصويره . إن سان بيير هي النصرانية الفلسفية التي يطرد منها المهندس الإلهي الظلمات ، ويدخل فيها المدى والجمال ، والاتساق ، والنور في أمواج لا تفرغ ، إن جمال روما المنقطع النظير هو في أنها معبد تخاله مكرسا لينطوى على فكرة الله بكل جلالها .

ولو أن المسيحية انقرضت لظلت سان بيير المعبد العالمى ، الأزلى ، العقل ، الدين الذى سيعقب دين المسيح أيا كان ، على شريطة أن يكون ديناً يلقى بالله وبالإنسانية . إنه أكبر معبد معنوى شيدته على البسيطة عبقرية الإنسان ملهمة بفكرة إلهية . فعندما تلجه لا تدري هل أنت في معبد عتيق أم في معبد حديث ، فما من تفصيل يضنى العين

وما من رمز يشغل الفكر ، جميع الناس من جميع الأديان يدخلونه يحدوهم عين الاحترام . إنك لتحص أنه معبد محال أن تسكنه غير فكرة الله ، وأن أية فكرة أخرى محال أن تملأ فراغه .

بدل السكان ، احذف الهيكل ، افصل اللوحات ، انقل التماثيل : لا شيء يتغير فإنه دائماً بيت الله . أو الأخرى أن سان بيير وحدها هي رمز كبير للمسيحية الأزلية التي تملك كبذرة في تعاليمها الأخلاقية وفي قدامتها التطورات المتعاقبة للفكر الديني في جميع العصور وللناس أجمعين فتفتح للعقل بحسب ما يثيره الله ، وتصل في النور مع الله ، وتوسع ، وترتفع مع مقاييس الذهن البشرى الذي يتسع بلا انقطاع ويستجمع الشعوب جميعاً في عبادة واحدة فيجمل من صور الألوهية كافة إلهاً واحداً ، ومن الأديان جميعاً ديناً واحداً ، ومن الناس أجمعين إنسانية واحدة .

إن ميشيل أنجلو هو بمثابة موسى للكاثوليكية الأثرية ، كما سيفهمها الناس ذات يوم . لقد صنع د تابوت العهد ، للمسيح قبله صنع بانشيون العقل المؤله .

— V —

وأخيراً بعد أن شجعت من روما ، أردت أن أرى نابولي . كانه ماجذبنى إليها على الأخص قبر د فرجيل ، ومهد د لوتاس ، فقد كانت البلاد عندي دائماً أناساً ، فنا بولي هي فرجيل ولوتاس . خيل إلى أنهما هلي قيد الحياة أمس ، وأن رمادهما مازال دافئاً ، وكنت أرى سلفاً

خلال جو عبقريتها الجميلة الرقيقة ، البوزليبي ، والسورانتو ،
وفيزوف ، والبحر .

رحلت إلى نابولي في أواخر شهر مارس . وقد سافرت في عربية
يريد مع تاجر فرنسي كان يبحث عن رقيق طريق لينحلف تكاليف
السفر . وعلى مسافة من فلليتري صادفنا عربية يريد روما - نابولي
مقلوبة على حافة الطريق مثقوبة بالرصاص . وكان موظف البريد ،
والسائق ، وجوادان مجندين . وكانت جثتا الرجلين قد نقلتا من وقت
قريب إلى كوخ مجاور . وكانت المنشورات المقطعة ومزق الرسائل
تذروها الريح . وكان قطاع الطريق قد اتخذوا طريق أبروز . وكانت
تطاردهم بين الصخور قصائل من الفرسان والمشاة الذين كانت وحدتهم
مرا بلة في تيراسين . وكنا نسمع دوى الرصاص ، ونرى على سفح الجبل
بطوله دخان الطلقات النارية . وكنا نقابل من مسافة إلى مسافة
ممسكرات القوات الفرنسية والنابولية مبشوة على طول الطريق .
كذلك كان الدخول إلى مملكة نابولي آنذاك .

كان لقطع الطريق هذا صبغة سياسية . فقد كان « مورا » يحكم ،
وما فقيء الكالابريون يقاومون ، وكان الملك فرديناند ، الذي انسحب
إلى صقلية ، يزود رؤساء العصابات في الجبال بالموارد . وكان فراديا فولو
الشمير يحارب على رأس تلك العصابات . كانت حملاتهم مذابح . ولم
نجد النظام والأمان إلا عند مشارف نابولي .

بلغتها في أول أبريل . ولحق بي بعد ذلك ببضعة أيام شاب يناهزني
في العمر ، كنت قد ارتبطت وإياه في المدرسة بلحمة صداقة أخوية

حقيقية . كان يدعى إيمون دى فريبه ، وكانت حياته وحياتي منذ طفولته إلى بمانه مندمجتين لدرجة أن وجوده ووجودى كان يكمل كلاهما الآخر ، وأنى تحدثت عنه فى كل موضع تحدثت فيه عن نفسى .

٨

عشت فى نابولى حياة التأمل نفسها تقريبا التى عشتها فى روما لدى رسام ميدان أسبانيا العجوز ، إلا أنى بدلا من إتفاق نهارى متجولا بين أطلال الآثار كنت أنفقه على الشواطىء أو على متن أمواج خليج نابولى . وكنت أعود فى المساء إلى الدير القديم ، حيث كنت أقيم - بفضل كرم ضيافة قريب أسمى - فى غرفة صغيرة تحت السقف مباشرة . وكانت شرقتها المزينة بأصص الزهور والنبات المتسلق تطل على البحر وبركان فيزوف ، وكاستيلامارى ، والسورانتو .

لما كان أفق الصباح يبدو صافيا رائقا ، كنت أرى بيت لوتاس الناصع متألعا ، معلقا كأنه وكر وجمعة ، على قمة الصخور الباسقة الصفراء التى تحتها الأمواج نحتا عموديا . كان هذا المشهد يخلب لبي ، كان ضوء هذا البيت يتلألأ حتى يلبس شغاف نفسى : كان بمثابة بريق مجد يشع من بعيد على شبانى وخول ذكرى . فيتوارد على خاطرى مشهد البطولة فى حياة هذا الرجل العظيم ، عندما أفرج عنه من السجن ، يلاحقه حسد الصغار وتشهير الكبار ، يتخرون عليه حتى فى عبقريته ، ثروته الوحيدة ، فعاد إلى السورنتو ينشد لمحة من راحة ، ومسحة من رقة أو شفقة ، وإذا عتسكر فى أسمال متسول يتقدم إلى أخته ليبلو قلبها ويرى ما إذا كانت هى حل الأقل تعرف على ذلك الذى طالما أحبها .

ويقول مؤرخه الساذج « رغم شحوبه من الملة ، ولحيته المبيضة
ومعطفه الممزق ، ارتمت بين ساعديه يحدوها من الخنسان والإشفاق
أكثر مما لو كانت عرفت أخاها مرتديا ثياب حاشية فيرارى الموشاه
بالذهب . واحتبس صوتها طويلا بالنشيج ، وضمت أخاها إلى فؤادها .
وغسلت له قدميه ، وأحضرت له معطف أبيها ، وأعدت له وجبة احتفال .
إلا أنه لا هذا ولا تلك استطاع أن يجعله يمسس الطعام الذى أعد ، فإلى هذا
الحد كان قلباهما فائضين بالدموع ، وأنفقا التمار يحمشان بالأسكاه دون
أن يتحدئا ، مشاهدين البحر ومتذكرين أيام الصبا . »

٩

وذاث يوم ، كان مستهل الصيف ، حينما يشبه خليج نابولي وقد
حفت به الللال ، والبيوت البيضاء والصخور المكسوة بالكروم المعرشة
المحيطة ببجورها الذى يفوق سماءها زرقة يشبه آنية أثرية خضراء مترعة
بالزبد الأبيض ، ويزين اللبلاب والعساليج مقابضها وحوافها . كان
الموسم الذى يتعد فيه صيادو البوزيليب الذين يقيمون أكوخهم
معلقة على صخور الخليج . وينشرون شباكهم على الرمال الرقيقة
لشواطئهم الصغيرة - يتعدون عن الأرض فى ثقة . . وينطلقون للصيد
فى الليل على بعد مرحلتين أو ثلاث مراحل وسط الدأماء ، اغاية صخور
جزر كابرنى وبروسيدا وإيسكيا . ووسط خليج جايقى .

ويحمل بعضهم مشاعل يؤرثونها ليخمدوا السمك . فيصعد السمك
نحو الضوء حاسبا أنه شفق الصباح . ويجلس طفل القرفصاء على مقدم
القارب ، ويمسك الشعلة مائلة فوق الموجة ، فى حين ينظر الصياد فى أغوار

المياه محاولاً أن يرى فريسته ليقننصها في شبكته . وتنعكس هذه النيران المتوهجة توهج موقد القرن - تنعكس في خطوط طويلة متموجة على صفحة البحر ، مثل الأضواء المستطيلة التي تشعها عليه الكرة القمرية ، وتدفعها رجرجة الأمواج إلى الاهتزاز فيمتد وميضها من موجة إلى موجة فيبتعد بقدر ما تعكسه الموجة الأولى على الأمواج التي تعقبها .

١٠

كثيراً ما كنا ننفق ساعات بأكلها ، صديق وأنا ، جالسين على صخرة أو على أطلال قصر الماسكة جان الرطبة ، نشاهد هذه الأضواء العجيبة ، ونحسد أولئك الصيادين الفقراء على حياتهم المتجولة الخالية من المهرم .

وقد جملنا إقامتنا بضعة أشهر في نابولي . ولقاؤنا المعتاد لأفراد الشعب أثناء جولاتنا اليومية في الريف والبحر . نألف لغتهم الرنانة المنغمة . التي تحتل الإشارة والنظرة فيها مكاناً أكبر مما تحتله الكلمة . ولما كنا فيلسوفين بالحدس . ومتعبين بشواغل الحياة وزعازعها الباطلة قبل أن نعرفها . فقد كنا نغبط أولئك الصيادين السعداء المنقشرين على شواطئ نابولي وأرصفتها . منفقين أيامهم في النوم تحت ظلال قواربهم الصغيرة على الرملة . أو في استماع القصائد المرتجلة لشعرائهم المتجولين . وفي رقص التارنتلا مع فتيات طبقتهم ، في المساء ، تحت تعاريس السكرم على شاطئ البحر . وكنا نعرف عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم أفضل مما نعرف عادات وطباع وأخلاق المجتمع الراقى الذي لم نفشه قط ، كانت هذه الحياة تعجبتنا وتهدى فينا نائرة هذه الاختلافات

النفسانية المحرمة . التي تفسد خيال الشباب بلا جدوى قبلها يدعوهم
عصيرهم إلى العمل أو إلى التفكير .

كان صديقي في العشرين من عمره ، وكنت في الثامنة عشرة . كان كلانا
إذنه في تلك السن التي يسمح فيها للمرء بأن يخلط بين الخيال والحقيقة .
فعلنا على أن نتعرف بأولئك الصيادين وأن نبحر معهم لنعيش الحياة
تفسيها بضعة أيام . كانت هذه الليالي الدافئة المضطربة التي تنفق تحت
الشراع ، في هذا المهد الذي تهدده الأمواج . وتحت السماء العميقة
المتلألئة النجوم - كانت تبدو لنا لذة من أمعن لذات الطبيعة استغلاقاً ،
لذة ينبغي أن نغتنمها ونعرفها ، ولو لمجرد أن نروها .

كنا شابين حزينين ، وليس ثمة من يحاسبنا على أفعالنا وغيابنا
ولذا فقد نفذنا في الغداة ما حللنا به في العشية . وإذا اخترقنا شاطئ
المارجولين الذي يمتد تحت قبر فرجيل ، في سفح البوزيليب . وحيث
يشد صيادو قابولي قواربهم على الرملة ويرتقون شبا كههم . أبصرنا
شيخاً مابرح قويا . كان يشهد أدوات صيده في قاربه المزخرف بألوان
صارخة ، والذي يحمل في مؤخرته تمثالا صغيرا للقديس فرنسوا . وفي
تلك اللحظة كان طفل في الثانية عشرة من عمره - هو يجذفه الوحيد -
يحضر إلى القارب رغيفين من الخبز وقطعة جافة من الجبن ، صفراء تبرق بريق
حسب الشاطئ ، وبعض التين ، وآنية من الفخار تحتوي على الماء .

وقد جذبنا وجه الشيخ ووجه الطفل أيضاً ، وجاذبناهما أطراف
الحديث . وأنشأ الصياد يبتسم عندما اقترحنا عليه أن يقبلنا عنده
كمجدفين وأن يأخذنا معه إلى البحر . قال لنا : « ليس لكما الأيدي
الخشنة اللازمة لمسك المجداف . إنما خلقت أيديكم البيضاء لتمسك القلم

وليس الخشب ، إنما الخسارة أن نخشونها في البحر . ، فاجابه صديق
« نحن شابان ونود أن نجرب كل الحرف قبل أن نختار إحداها . وإن
حرفتك لتروقنا لأنها تؤدي في البحر وتحمي السماء . ، فرد الصياد
المعجوز « أنت على حق ، فهمى حرفة تجعل القلب راضياً قريراً ، والذهن
وانقاً مؤمناً بحماية القديسين . فالصياد يعيش في رعاية السماء المباشرة ،
والإنسان لا يعرف من أين يأتي الريح والموج . لأن القارة والمبرد في يد
العامل ، والثروة والحظوة في يد الملك ، أما القارب ففي يد الله . ،

زادتنا فلسفة النوتي المعجوز التيقية هذه لإصراراً على فكرة الإبحار
معه . وأخيراً قبل بعد مقاومة طويلة ، وانفقنا على أن يعطيه كلانا
يومياً « كارليني ، نظير تعليمنا وغداً لنا .

وعلى أثر إبرام الاتفاق ، أوفد الطفل إلى المارجلينا لاجتلاب مزيد
من المشونة من خبز ونبيذ وجبن جاف وفاكهة . وعندما أدير النهار
ساعدناه في إنزال القارب إلى البحر وأقلعنا .

- ١١ -

كانت الليلة الأولى لذيدة رائعة . . كان البحر هادئاً هدوء بحيرة
مصورة بين جبال سويسرة ، وكلنا نأينا عن الشاطئ رأينا ألسنة النار
المنبثقة من نوافذ قصور نابولي وأرصفتها تتوارى تحت صفحة الأفق
المتعة . كانت الفئارات وحدها تزيننا الشاطئ . وكان يتولاها الحفوت
أمام عمود النار الخفيف المندلع من فوهة بركان فيزوف . وبينما كان
الصياد يلقى شبكته ويجذبها ، والطفل المثقل الأجفان يترك شعلته

تتأرجح ، كنا نعطى القارب بين الفينة والفينة دفعه خفيفة ، ولستمع في نشوة إلى قطرات المياه المنغمة التي تنساب من مجدافينا ، وتساقط في البحر في إيقاع رتيب تساقط الكلى في حوض من الجين .

لقد تخطينا منذ أمد طويل رأس البوزيليب ، واخترقنا خليج بوزوليس ، وخليج ياي ، وتجاوزنا قناة خليج جايتي بين رأس مسينا وجزيرة بروسيديا . أمسينا في عرض البحر ، وغلبنا النعاس فقمنا تحت مقاعدنا ، بجوار الطفل .

ونشر الصياد فوقنا الشراع الثقيل المطوى في قاع القارب ، وكذلك نمنا بين موجتين ، . . تهدهدنا الأرجحة غير المحسوسة لبحر هادئ . لا يكاد يحرك الصاري . وعندما استيقظنا كنا في راد الضحى .

كانت الشمس الساطعة تموه صفحة البحر بأشرطة بموجة من الذهب ، وتنعكس على البيوت البيضاء القائمة على شاطئ مجمول . وكان ثمة نسيم عليل يهب من تلك الأرض فيجعل الشراع يخفق فوق رؤوسنا ، ويدفعنا من شرم ، إلى شرم ، ومن صخر إلى صخر ، كان شاطئ جزيرة إيسكيا الفاتنة ذا صخور مدببة عمودية ، تلك الجزيرة التي طالما ساقم بها ، وطالما سآحمها فيما بعد . لقد بدت لي من أول مرة سباحة في النور ، بازغة من الماء ، تائهة في زرقة السماء كأنها نفحة ينفثها عنها حلم شاعر خلال إغفاءة خفيفة ذات ليلة صيف . . .

- ١٢ -

إن جزيرة إيسكيا ، التي تفصل خليج جايتي عن خليج نابولي ، والتي تسمى نفسها عن جزيرة بروسيديا قناة ضيقة ، ليست إلا جبلا واحداً

مشرها تغمس قمته البيضاء المصعوقة أسنانها المثلومة في السماء ،
وتكسو جوانبها الوعرة التي تشققها الوديان ومسارب المياه ، وأخايد
السيول تكسوها من أعلى إلى أسفل أشجار كستناء داكنة الخضرة .
وتحمل نجوك القريبة من البحر الممائلة على الموج أكواخا ، وبيوتا
ريفية ، وقرى يستخفى منها شطر كبير تحت كروم العنب . ولكل
من هذه القرى « بحريتها » . ويدعى كذلك المرفأ الصغير الذي ترسو
فيه قوارب صيادي الجزيرة ، وتخفق فيه بعض صواري السفن الشراعية ،
وعوارض الصواري تلبس أشجار الشاطئ وكرومه .

وما من بيت من هذه البيوت المعلقة على سفح الجبل ، سواء
في ذلك المستخفية في أغوار أخايده أو المدرجة فوق نجد من نجوده ،
أو القائمة فوق رأس من رؤسه ، أو المتكئة على غاية كستنائيه ،
أو المتفيسة آجام صنوبره ، أو المحوطة بأروقته البيضاء والمزينة بأعراشه
المدلاة — إلا وكان في الحلم المقر المثالي لشاعر أو لعاشق .

لم تسأم عيوننا هذا المشهد . وكان الشاطئ غزير السمك . وكان
الصيد موفقاً في ألبته . ورسونا في أحد الخلجان الصغيرة بالجزيرة لنزود
بالماء من نبع مجاور ولنستريح في ظل الصخور . وعند الأصيل هدنا
إلى نابولي راقدين على مقاعد التجديف . وكان شراع مربع موضوع
بعرض صار صغير في المقدمة ، وقد أمسك الصبي بحبله — كان كافياً
لكي نسير في محاذاة ملساء بروسيدا ورأس مسينا ، ولما كنا نمخر سطح
الدأماء بقاربنا الصغير .

وجر الصياد المعجوز والطفل ، يعمونتنا ، قاربهما على الرملة وحملنا

سلال السمك إلى قبو البيت الصغير الذى كانا يسكنانه فى ظل منحور
المارجلىنا .

— ١٣ —

وفى الأيام التالية استأنفنا مهنتنا الجديدة بمرح . ونحزنا عبابه
بحر نابولى وكسونا موجه بالزبد . وكنا نتبع الريح حينما هبت دون
ماتدبر ، وكذلك زرنا جزيرة « كبرى » حيث لا يزال الخيال يتقزز
من شبح « تيرىوس » المشثوم ، « وكوم » ومعا بدها المتوارية تحت
أشجار الرند الأثيمة ، وأشجار التين البرية ، وبايا وشواطئها السكالحة
السكتيبة التى تخالها هدمت وابهضت مثل أولئك الرومان ، والى كانت
فيما مضى مرتعاً لشبابهم وملاذم ، وبورتيش وبومبايا الضاحكتين
تحت حمم بركان فيزوف ورماده ، وكاستلامارى التى تتمكس فى البحر
أجامها الباسقة السوداء من أشجار الرند والكستناء فنصبغ أمواج الميناء
دائمة الهمس بخضرة داكنة . وكان النوقى العجوز يعرف فى كل مكان
أسرة ما من بنى حرقته ، تكرم وفادتنا عندما يصطخب البحر فيحول
دون عودتنا إلى نابولى .

شهران لم نختلف خلالها إلى فندق . عشنا فى الهواء الطلق مع
الشعب ، معيشة السكناف كالشعب . كنا قد جعلنا أنفسنا من « الشعب »
لنسكون أقرب إلى الطبيعة . وكنا نرتدى ملابس الشعب ، ونتكلم
لغته ، ولقد بثت فينا بساطة عاداته — إن أمكن القول — سداجة
مشاعره .

وعلى كل حال لم يكلفنا هذا التجول ، صديقي وأنا ، إلا القليل .
فقد نشأنا — كلانا — في الريف ، إبان عواصف الثورة ، التي
ضمضت أسرتينا أو بددت شملها ، فمضنا طويلا في طفولتنا معيشة
الفلاح : هو ، في جبال جريزيفودان ، لدى مرضعة آوته خلال
سجن أمه ، وأنا ، على تلال ماكونيه في المقر الريفي الصغير الذي آوى
فيه أبوي ، عشمها المهدد . وليس من فرق بين الراعي أو الفلاح في
جبالنا وبين الصياد في خليج نابولي إلا الموطن واللغة والمهنة . إن
جرة المحراث والموجة نوحيان فكرة واحدة إلى القوم الذين يشقون
الأرض أو الماء . فالطبيعة تخاطب بلغة واحدة أولئك الذين يقيمون
بين ظهرانها سواء على أديم الجبل أو صفحة الدماء .

ولقد أحسننا ذلك . ففي وسط هؤلاء القوم البسطاء لم نجد أنفسنا
غرباء . فالغرائز الواحدة لحمة قربي بين بني الإنسان . حتى وتيرة تلك
الحياة الرتيبة كانت تروقنا . إذ تلهينا وتنومنا . وكان يشق علينا
أن نرى دنو نهاية الصيف واقتراب أيام الخريف والشتاء هذه التي
يتعين أن نعود بعدها إلى وطننا . وقد استبد القلق بأسرتينا ، فبدأنا
نستدعياننا . وكنا نهدد فكرة الرحيل هذه بقدر ما يمكننا ، وكان
يطيب لنا أن نتصور ألا يكون لهذه الحياة نهاية أبداً .

- ١٤ -

وحينذاك بدأ سبتمبر بغيثه ورعده . وكان البحر أقل هدوءاً
ودعاة . وباتت مهنتنا — التي ازدادت مشقة — في بعض الأحيان

خطرة . كانت الانسام تشدد ، والأمواج ترغى وتزبد ، وكثيراً ما بللتنا بفورانها . وكنا قد ابتعنا من الرصيف سترتين من السترات الصوفية الخشنة البنية اللون التي يطرحها توتية نابولي وسوقتها دلي اكتافهم في الشتاء . وأكسام هذه السترات الفضفاضة تتدلى بجانب السواعد العارية .

وذات يوم أقلعنا من المارجلينا في بحر هادى . هدوء الزيت ، لا تمتلج صفحته بنسمة واحدة ، قاصدين صيد سمك المرجان وبواكير التونة على شاطئ كوم حيث يدفعها التيار في ذلك الموسم وكان ضباب الصباح الأصهب ينسدل حتى يلف الشاطئ وينبىء عن ريح عاصفة في المساء . وكان يحدونا الأمل في أن نتفادها ويتسع لنا الوقت لنجتاز رأس مسينا قبل أن يستيقظ البحر المثلث النعسان .

وكان الصيد غزيراً . وعن لنا أن نلقى بضلع شباك أخرى ، فدهمتنا الريح ، هبت من قمة أپومپو ، الجبل الأشم الذي يربض مشرفاً على إيسكيا — مصحوبة بقصف ونقل كأن الجبل نفسه قد انقض متداعياً في البحر . في بادىء الأمر مهدت كل المساحة السائلة التي تسكتنفنا مثلها تمهد المسلفة الحديدية الأرض وتبسط الخطوط . ثم انتفخت الموجة — مهممة غائصة ، بعد أن استردت روعها من المفاجأة ، ثم ارتفعت في بضع دقائق ارتفاعاً بلغ من مداه أنها كانت تعجب عنا من حين لآخر الساحل والجزائر .

كنا قد بعدنا عن الأرض الثابتة وعن جزيرة إيسكيا سواء بسواء .

وقطعنا نصف القناة التي تفصل رأس مسينا عن جزيرة بروسيدا الإغريقية. ولم يكن لنا معدى عن قرار واحد: أن نتوغل بحزم في القناة، وإن أفلحنا في عبورها نعطف إلى الشمال في خليج بابا ونهتدى في أمواهه الهادئة.

لم يتردد الصياد العجوز. فن ذروة موجة علقنا فوقها توازن القارب لحظة وسط دوامة من الزبد مائجة، ألقى نظرة خاطفة حوله، شأنه شأن رجل ضل طريقه فتساق شجرة آيتيينه، ثم هرع نحو الدفة صائحاً إلى مجاديفكم يا أولاد! لا بد أن نسير صوب الرأس أسرع من الريح، فلو أنها سبقتنا لسكننا من الهالكين!، فأطعناه طاعة الجسد للفرصة.

علقت عيوننا بعينييه مترصدة أقل نأمة من توجهاته، وقد ملنا فوق مجاديفنا. وإذ كنا تارة نتساق بمشقة سفح الأمواج الصاعدة وتارة نهوى مع زبدها في قلب الأمواج الهابطة، فقد حرصنا على تعجيل صعودنا أو تعويق هبوطنا بمقاومة مجاديفنا في الماء. ودهمتنا نحو عشرة أمواج متزايدة في الضخامة دفعتنا إلى أضيق جزء في القناة. بيد أن الريح كانت قد سبقتنا كما توقع الربان، وانحصرت ما بين الرأس وطرف الجزيرة فاكتمت قوة بلغ من مقدارها أنها كانت ترفع البحر بما يشبه فوران حمم بركان نائر، وأن الموجة إذ لا تجد متسعاً للفرار بسرعة أمام العاصفة التي تطاردها، كانت تشكسر على نفسها فتندك، وتنساب، فتشتت في كل اتجاه كأنها بحر نائر مجنون، وإذ تسمى إلى الإفلات دون أن تجد مهرباً من القناة، كانت ترتطم

بصخور رأس سينا العمودية ارتطاماً مروعا حيث ترفع عموداً من الزبد يصل إلينا نثاره .

- ١٥ -

كان من الحماقة محاولة اجتياز هذا الممر بمثل ذلك القارب الهش الذى يمكن لآى دفعة من الزبد أن تملأه فتغرقه . فألقى الصياد على الرأس الذى يضيئه عمود الزبد نظرة إن أنساها ما حبيت ، ثم رسم هل صدره علامة الصليب ، ضائحا ، إن العبور لمستحيل ، والتراجع إلى عرض البحر أكثر استحالة ، فلا مندوحة لنا من أمر واحد : أن تبلغ شاطئ بروسيديا أو نهلك ، !

أثناء اتجاهنا صوب الرأس ، كانت الريح تدفعنا من خاف ، كانت تسوقنا أمامها ، كنا نتبع البحر الذى يفر معنا ، وكانت الأمواج ترفعنا فوق قمتها وبالتالي ترفعنا معها فلا يكون ثمة فرصة لتغرقنا فى الهوة التى تحفرها . لكننا لسكى نبليغ بروسيديا التى كنا نرى أنوارها تنالنا على يميننا ، كان علينا أن نشق طريقنا بعرض الأمواج ، وأن نزاق فى أوديتها ، إن صح القول ، فى اتجاه الشاطئ ، معرضين جانبي القارب للبوحة ، وحوافه الواهنة للريح . وأشار إلينا الصياد أن نرفع المجاديف ، واستغل الفاصل ما بين موجة وأخرى ليوجه القارب . وأخذنا سمتنا إلى بروسيديا ، وطفونا كعمود من الطحلب لتلقيه موجة إلى موجة . ويتلقفه مد من مد ..

كنا نتقدم تقدماً طفيفاً ، وكان الليل قد أرخى سدوله . وضاهف من عتمة الرغام ، والرغاء ، والغيوم التي تدفعها الرياح فوق القناة في شتات ممزق مبعثر . وأمر الشيخ الصبي أن يوقد أحد مشاعله ، إما لينير بعض الشيء مناورته في أعماق البحر ، وإما لينبئ بحارة بروسيدا أن في القناة قارباً في محنة ، وإيسألهم ، لا نجدة وإنما دعاء .

كان مشهداً رائعاً ومروعاً ، مشهد هذا الغلام المنكود متشبهاً بإحدى يديه بالصاري الصغير القائم عند مقدمة القارب ، ورافعاً يديه الأخرى فوق رأسه تلك الشعلة المتوهجة نارها . التي ينثنى لها ودخانها بفعل الرياح فيحرقان أصابعه وشعره . .

كانت هذه الشرارة الطافية ، الظاهرة فوق قمة الموج ، المخفية في أعماقه ، الوشيكة الانطفاء دائماً ، المشتعلة أبداً — كانت بمثابة رمز لحيوات الرجال الأربعة أولئك ، الذين يسكفون ، بين النجاة والحمام في ظلمات تلك الليلة وشدايدها . .

على هذا النحو مضت ثلاث ساعات طالت دقائقها طول الأفسكار التي نقيسها — وارتفع القمر ، فارتفعت معه كالمعادة الريح العاصفة . ولو كان معنا أقل شراع لقلبنا الريح عشرين مرة . ومع أن حواف القارب الخفيفة لم تتمكن العاصفة منا إلا قليلاً ، فقد مرت لحظات كادت

فيها أن تقتلع قاربنا من الموج اقتلاعا . وكانت تتلاعب بنا كورقة .
جافة منتزعة من شجرة ...

ووسق القارب ماء كثيراً : لم يكن في وسعنا أن نفرغه بالسرعة
التي يهاجمنا بها . ومرت لحظات شعرنا فيها بقاع القارب يهوى من تحتنا
كالنعرش الذي يهبط إلى القبر . وجعل ثقل الماء القارب أصعب قياداً ،
وأمسكنه أن يبطئ صعوده مرة عندما انحصر بين موجتين . ولو
تأخرنا ثانية واحدة لقضى الأمر .

وأولنا الشيخ ، عاجزاً عن النطق ، وبعين ذات دمع ، أن نلقى
في اليم كل ما كان يزحم قاع القارب . جرار الماء ، وسلال السمك ،
والشراطين الكبيران ، والهاب الحديد ، والحبال ، وحتى حزم ملابسه
الثقيلة ، بل ستراتنا الصوفية الخشنة المبتلة : كل هذا ألقى من فوق
القارب . وتأمل النوق المنكود لحظة كل ثروته هذه عائمة . وصعد
القارب ثانية ، وانطلق على قمة الأمواج بخفة ، شأنه شأن جواد
خفف وقفه .

ورويداً رويداً دخلنا في بحر أودع ، يحميه نوعاً ما رأس بروسيدا
الغربي . وهدأت نائرة الريح ، واعتدل لهب الشعلة ، وشق القمر
ثغرة كبيرة زرقاء بين السحب ، وامتد الموج فانبسط وكف عن نشر
الزبد فوق هاماتنا . وشيئاً فشيئاً كان البحر قصيراً رجراجاً كأننا في
شرم يكاد يكون هادئاً ، وقطع ظل ماساء بروسيدا الأسود صفحة الأفق .
كننا في أمواه وسط الجزيرة .

وكان يبلغ من هياج البحر عند الرأس بحيث لم تفكر في البحث عن المرفأ . فلم يكن مناص من أن نقرر النزول إلى الجزيرة من أحد جوانبها ووسط صخورها . وقال لنا الصياد وقد تعرف الشاطئ على ضوء الشعلة : « فلنكف عن القلق يا أولادى ، فقد أنقذتنا العذراء . لقد دنونا من البر ، وسوف ننام الليلة في بئى » . . حسبنا أنه قد فقد رشده ، فما عرفنا له مأوى آخر سوى قبوه المظلم في المرجلينا ، ولما نعود إليه قبل الليل ، كان علينا أن نلقى بأنفسنا ثمانية في القناة ونجتاز الرأس ، ونواجه من جديد البحر المصطخب الذى أفلتنا للتو من قبضته .

ولكنه ابتسم لما اعترانا من دهش ، وفطن إلى خواطرنا من عيوننا ، فاستأنف قائلا : « اطمئنا أيها الشباب ، وسوف نبليغه دون أن تبلىنا أية موجة » . ثم أنشأ يشرح لنا أن بروسيدا هى مسقط رأسه ، وأنه مازال يملك على شاطئ الجزيرة هذا كوخ أبيه وحديقته ، وأنه كافى في بيته في تلك اللحظة زوجته العجوز مع حفيدته الصغيرة ، أخت بيبينو ، بحارنا الصبى ، وطفلين آخرين صغيرين ، ليحفظوا فيه الثمن ، ويحفظوا الكرم الذى يبيعون عنبه في نابولى . .

ثم أضاف قائلا : « ضربنا مجداف آخريان نشرب من ماء النبع الذى يفوق نبيذ إيسكيا صفاء » .

بث فينا تلك الكلمات الشجاعة ، وعدنا نهدف مسافة مرحلة

تقريباً بمحاذاة ساحل بروسيدا المستقيم المزبد . وكان الطفل يرفع الشعلة ويحركها من آن لآن . وكانت تشع بصيصها المشثوم على الصخور وتبدى لنا في كل مكان جداراً الاقتراب منه محال . وأخيراً ، عند رأس من حجر الجرانيت يمتد في البحر على هيئة زاوية قلعة ، رأينا الصخرة تنحني وتتجوف قليلاً كأنها فجوة في سور ، وبحركة من الدفة انجمنا رأساً إلى الشاطئ ، ثم ألقت ثلاث أمواج أخيرة بقاربنا المنهوك بين صخرتين من الصخور حيث يفوز الزبد فوق قاع ضحل .

— ١٩ —

أحدثت مقدمة القارب عندما لمست الصخرة صوتاً أجش عالياً أشبه بقرعة لوح من خشب يسقط فينحطم . وقفزنا إلى البحر وربطنا القارب ماوسعنا بما تبقى من الحبال ، وتبعنا الشيخ والصبي اللذين تقدمانا . .

صعدنا سُلماً ضيقاً متدرجاً على جانب الصخرة العالية حيث حفرت بالأزميل في الحجر درجات متفاوتة ، منزلقة بفعل الطحلب . وقد استبدل بهذا السلم المقدود من الحجر الحصى ، الذي ينزلق أحياناً تحت القدم ، بعض درجات صناعية أقيمت عن طريق غرس قصبات طويلة من طرفها في ثقب الجدار ، ونفطية هذه الأرضية المهترئة بالواح القوارب القديمة المطلية بالقار أو بحزم من غصون أشجار الكستناء المكسوة بأوراقها الجافة .

وبعد أن صعدنا هكذا ببطء نحو أربعائة درجة أو خمسمائة ،
ألقينا أنفسنا في فناء صغير معلق يلتف به سياج من الحجر الرمادي .
اللون . وكان في آخر الفناء عقدان مظلمتان يبدو أنهما يفضيان إلى قبو .
وكان فوق هذين العقدتين الضخمين بانيكستان مستديرتان منخفضتان
يعلوها سقف على هيئة شرفة ، زينت حوافه بأصص حصالبان وريحان ،
وكان تحت البانيكستين بهوريفي ، تألق فيه في ضوء القمر ، أكواز
أذرة معلقة كأنها ثريات من ذهب .

وكان يفتح على هذا البهو باب من ألواح غير محكمة . وعلى اليمين
كانت الأرض التي يقوم عليها المنزل في غير توازن ترتفع إلى مستوى .
البهو . وكانت شجرة تين ضخمة وبعض عساليج العنب المنهرجة
تدلى منها على زاوية المنزل مختلطة أوراقها وأثمارها تحت كوى البهو —
ومنسابة من أغصانها المورقة لكليلا أو ثلاثة أكاييل انسياب .
الأنفى فوق دعامة الرواقين . وكانت فروعها تدلى فتسد شطراً من
نافذتين منخفضتين تطلان على هذه الحديقة البسيطة ، ولولا هاتان
النافذتان لظننت هذا المنزل الأصم ، المربع ، المنخفض ، صخرة
رمادية من صخور هذا الشاطئ . ، أوركماً من أركام الحمام البارد التي
تلتف بها أشجار الكسقاء واللبلاب والسكرور قنوارها بأغصانها ،
والتي يحفر فيها زراع السكرم في كاستلامارى أو سوراني قبواً يغلقه
باب ، كما يحفظ نبيذه بجوار العود الذي حمله .

ولما كانت أنفاسنا قد تقطعت نتيجة للصعود الطويل السريع
الذي صعدناه ، وثقل بجاذيفنا التي حملناها على عواتقنا ، فقد توقفتنا .

هنيئة ، الشيخ ونحن ، نستريح ونسترد أنفاسنا في هذا الفناء بيد
أن الصبي ألقى مجدافه على كومة من العشب ، وصعد المتدرج بخفة .
وظفق يذق على إحدى النافذتين بشعلته التي ما برحت مؤرثة . منادياً
جدته وأخته بصوت مرح :

و أماء ! أختاه ! مادري ، سور بيلينا . جانيانا ! جازيلا ! هبوا
أفتحوا ، ها نذا . وأبي وبعض الغرباء معنا .

سمعنا صوتاً نصف يقظان لكن كان واضحاً . رقيقاً . يطلق مرتبكا
من داخل المنزل بعض صيحات من الدهشة . ثم انفرج مصراع إحدى
النافذتين نصف انفراج . وقد دفعته ذراع عارية بضة بارزة من كم
يتماوج . ورأينا على ضوء الشعلة التي يرفعها الصبي نحو النافذة . وهو
يشب على أصابع قدميه ، محياً صبيحاً ساحراً لفتاة كاعب يزنح بين
المصراعين وقد زادا انفراجا .

لقد فرجت جازيلا لبان نومها بصوت أخيها فلم يتهأ لها الفمكر
ولا الوقت لكي ترتب ثيابها . واندفعت صوب النافذة حافية القدمين
متهذلة الثياب بالحالة التي كانت عليها في مخدعها .

كان نصف شعرها الفاحم المرسل يتهدل على أحد خديها . والنصف
الآخر يلتف حول جبينها تدفعه الريح التي تهب بشدة إلى الناحية
الأخرى من كتفها . فيرتطم بالمصراع الموارب ثم يرتد ليصفق محياها
ويسيطه مثل جناح غراب تعصف به العاصفة . .

كانت الفتاة تفرك عينيها بظفر يديها ، راقعة مرقعها ، منتزعة كتفها

يمثل تلك الحركة الأولى التي يأتيها طفل يستيقظ ويروم أن يطرد النوم .
كان قيصها ، المعقود حول عنقها ، يشف عن قوام فارغ نحيل لا تكاد
تتشكل فيه تحت الثوب بواكير توججات الشهاب . وكان لعينها
النجلاوين ذلك اللون الثائنه بين السواد الداكن وزرقة البحر ، الذي
يلطف سنا الإشعاع بعدوبة النظرة ، ويمزج في عيون المرأة بنسبة
متساوية حنان الروح بحدة الشهوة : صبغة علوية تشرها نساء آسيا
وإيطاليا من لهيب نارهن اللافت ، ومن لازورد سمائهن وبحرهن وليلهن .
الصافي . وكان الخدان ممتلئين ملفوفين ، أبيضين ، مشربين بسمرة من الجو
مكسوين بمسحة من شحوب لكنه ليس شحوب الشمال وليد العلة بل
بياض الجنوب وليد الصحة الشبيه بلون المرمر المعرض للهواء والموج
منذ عصور .

أما الفم ، الذي كانت شفته أشد انفراجاً واكتنازاً من شفاها
نساء مناطقنا ، فكانت ترسم عليه علام السداجة والطيبة . وأما
ثناياها القصيرة ، المتألثة ، فكانت تتألق على ضوء الشعلة الرجراج .
تألق الأصداف على شاطئ البحر تحت لمعة المساء في وهج الشمس . .

وبينما كانت تتحدث إلى أخيها الصغير ، كانت ألقاظها الحية
ذات الجرس ، التي يذرو النسيم نصفها تصافح آذاننا في مثل وقع
الموسيقا .

وانتقل سبأوها المتحرك تحرك ضوء الشعلة التي تنيره . انتقل في دقيقة واحدة من الدهش إلى الفزع . ومن الفزع إلى المرح . ومن الحنان إلى الضحك . ثم لمحتنا وراء جذع شجرة التين الضخمة . فتراجعت من النافذة مستحيية وتخلت يدها عن المصراع الذي طفق يصطفق بالجدار بلا عائق . ولم تغب من الوقت إلا ريثما توقظ جدتها وترتدى بعض ثيابها . ثم جاءت تفتح لنا الباب . وتعانق جدتها وأخاها في انفعال شديد .

- ٢٠ -

وما لبثت الجدة أن ظهرت بمسكة بيدها قنديلا من الفخار ينير وجهها النحيل الشاحب وشعرها الأبيض بياض شلال الصوف المسكورة على المنضدة حول مغزلها .

وقبلت يد زوجها وجبين الصبي . ثم رويت كل القصة التي تتضمنها هذه السطور في بضع كلمات . وبضع إشارات تبادلها أفراد تلك الأسرة المقلّة . ولم تكن نسمع كل شيء . فقد اتحنينا جانباً كيلا نعرقل فضفضة مضيفينا القلبية . كانوا فقراء وكنا غرباء : فكنا مدينين لهم بالاحترام .

وكان موقفنا المتحفظ في المؤخرة وعلى مقربة من الباب ينهضهم هذا الاحترام في سكون .

وكانت جراتيلا تلقى علينا من آن لآن نظرة دهش وكأنها مستغرقة في حلم . وعندما انتهى الأب من روايته ، جثت الجدة بجوار المدفأة ،

وصعدت جرازيللا إلى الشرفة ، وأحضرت غصن حصالبان ، وبضعة
من أزهار البرتقال ذات النجوم الكبيرة البيضاء ، وتناولات مقعداً ،
وعלת الطاقة بدبا ييس طويلة جذبتها من شعرها ، أمام تمثال صغير
للعدراء مشوب بسواد من الدخان ، موضوع فوق الباب ، وموقد
أمامه مصباح . ففهمنا أن هذا لإجراء حمد وثناء لحاميتهما الإلهية إذ
أنقذت جداه وأخاهما ، وأخذنا نصيبنا من شكرها وعرفانها .

- ٢١ -

كان داخل المنزل لا يقل تجرداً ولا مماثلة للصخر عن خارجه . لم يكن
ثمة سوى الجدران غير المطلية ، والمبيضة فقط بقايل من الجير . وكانت
المعاليات (السحالي) التي أيقظها النور تنسرب وتخشخش في صدوع
الأحجار وتحت الأوراق والأحطاب التي اتخذت مضاجع
للأطفال الصغار . وكانت أوكار عصافير الجنة التي يرى المرء الرموس
الصغيرة السوداء تبرز منها والعيون القلقة تبرق فيها — كانت معلقة
على عروق الحشب المغطاة بالنقش التي تكون السقف . وكانت جرازيللا
وجدتها تنامان معاً في الغرفة الثانية على سرير واحد مغطى بلف
من قماش الشراع . وكانت سلال الفاكمة وبرذعة بغل ملقاة على أرضية
الغرفة . .

والنفث الصياد صوبنا في مسحة من خجل ، ومشيرا لنا بيده إلى حقارة مسكنه ، ثم اقتادنا إلى الشرفة ، مقصورة الشرف في الشرق وفي جنوب إيطاليا . وبمعاونة الصبي وجرازيلا أعيد ما يشبه الظلة عن طريق إسناد أحد طرفي محاديفنا على سياج الشرفة والطرف الآخر على الأرضية . وغطى هذا المنحبا ببعض حزم من أشجار الكستناء المقطوعة حديثا من الجبل . ثم قرش تحت هذه الظلة بضع حزم من الأحطاب ، وجاءنا بكسرتين من الخبز ، وبعض الماء القراح والتين ، ودعانا إلى النوم .

وكان من شأن متاعب اليوم وانفعالاته أن جعلت نومنا مباحثا وعميقا . ولما استيقظنا كانت عصافير الجنة تصايح حول فراشنا وتسف الشرفة لتختطف منها فضلات عشائنا ، وكانت الشمس التي علت في السماء تلهب حزم الأوراق التي اتخذنا منها سقيفة فتجعلها كالفرن .

لبثنا طويلا مستلقين على الأحطاب ، في حالة الإغفاء هذه التي من شأنها أن تهيب الإنسان المعنوي أن يشعر وأن يفكر قبل أن تواتي الشجاعة الإنسان الحسي أن ينفض وأن يعمل . وتبادلنا بضع كلمات في مهمة مهمة قطعتها فترات سكون مستطيلة ، وراحت أضغاث أحلام صيد أمس ، والقارب المتأرجح تحت أقدامنا ، والبحر الهائج الهادر والصخور الراقدة الكأداء ، وبحيا جرازيلا بين مصراعين في ضوء الشعلة : كل هذه الصور كنا نراها تشبك وتلبد وتمترج .

١ خرجنا من هذه الغفوة. نشجع الجدة المسنة وتبكيها إذ كانت
تحدث إلى زوجها في المنزل . كانت المدخنة التي تخرق فتحتهم
الشرقة تحمل إلينا الصوت وبعض الألفاظ .

وكانت المرأة البائسة تندب وتولول على خسارة الجرار ، والحاميه
والحبال الجديدة ، وعلى الأخص الشرايين الجمالين المغزواين بيدها ،
والمنسوجين من قنبها ، وقد بلغ من وحشيتنا أن رمينها جميعا لكي
تنفذ حيواتنا .

كانت تقول للشيخ المحطم الواجم الملجم : ماذا دهاك حتى
تستصحب هذين الغريبين ، هذين الفرنسيين ؟ أما كنت تدري
أنهما وثنيان ، وأنهما في ركايتي النحاس والزندقة ؟ لقد عاقبتك
القديسون ، فبددوا ثروتنا ، ألا فلتشكركم على أنهم لم يدمروا —
روحنا .

لم يكن الرجل التعس يدري بماذا يجيب . بيد أن جرازيلا ،
بالإباحة وفراخ الصبر المخولين لطفل تسمح له جدته بكل شيء ، انبرت
ثائرة على هذا التأنيب الجائر ، وظهرت الشيخ فردت على حديثها قائلة :
« من الذي قال لك إن هذين الغريبين وثنيان ؟ هل للوثنيين مثل هذا
المظهر من الإشفاق على الفقراء من الناس ؟ هل يرسم الوثنيون مثلنا
علامة الصليب أمام صور القديسين ؟ وبعد . . أقول لك إنى رأيتهم

أمس ، عندما جشوت شاكرة الله ، وعندما علققت أنا الطاقة في تمثال
العذراء . رأيتهما يطأططان الرأس كأنهما يبصليان ، ويرسمان على
صدرهما علامة الصليب ، بل لقد لمحت دموعاً تترقرق في مقلة أصفرهما
منناهم تنحدر على يده . — فأجابها السيدة العجوز في حدة : لقد كانت
قطرة من ماء البحر انحدرت من شعره ، فردت جرازيللا في غنضة وأنا
أقول لك إنها كانت دموعاً : فإن الريح التي كانت تعصف كان لديها متسع
من الوقت لكي تجفف شعرهما من الساحل لغاية قمة الشاطئ . ولكن
الريح لا تجفف القلب . وبعد . . فإني أكرر لك أن عيونهما كانت
مخضلة .

فأدركنا أن لنا في الدار نصيرة قادرة ، لأن الجدة لم ترد ولم نعد
نقتسم متدمرة .

— ٢٢ —

عجلنا بالنزول لشكر الأسرة المملقة على ما أولتنا من كرم وقادة .
وجدنا الصياد ، والأم العجوز ، وبيبو ، وجرازيللا ، بل الأطفال
الصغار أيضاً متأهبين للنزول تجاه الشاطئ لزيارة القارب المتروك
أمس ، ورؤية ما إذا كان مشدوداً بما يكفي لمواجهة الجو الرديء ،
لأن العاصفة كانت لا تزال مستمرة ، نزلنا معهم ، غاضى الجبين ،
نحو لين ، شأننا شأن ضيوف حلوا في أسرة فسديوا لها حادناً مششوماً ،
وليسوا واثقين من المشاعر التي يضمها لهم أهل الدار .

كان الصياد وزوجته يقدماننا بوضع خطوات ، تقفوهما جرازيللا

ممسكة أحد أخويها الصغيرين بيدها، وحاملة الآخر على ذراعها، وتبعناهم نحن في المؤخرة صامتين. ولدى آخر منحى لأحد المتدرجات يرى الرائي منه ملساء الشاطئ التي كان تتوء صخرة لا يزال يحول دون أن نراها، سمعنا صرخة ألم تنطلق من فم الصياد ومن فم زوجه في وقت واحد. ورايناهما يرفعان سواعدهما العارية صوب السماء، ويقلبان أكتفهما في تشنجات اليأس، ويلطمان جبهتيهما وعيونهما بقبضة اليد، وينتزعان خصلًا من شعرهما الأشيب جعلت تذرهما الريح وهي تدوم بين الصخور . .

ولم تلبث جراذيل والأطفال الصغار أن خلطوا أصواتهم بهذه الصراخ. هرع الجميع كالجمارين يجتازون آخر درجات المتدرج صوب صخور الشاطئ، وتقدموا لغاية حواشي الزبد التي تدفعها الأمواج العاتية إلى البر، وهووا على الساحل، بعضهم جاثيا على ركبتيه، والبعض الآخر منكفئًا على وجهه، والسيدة العجوز تعتمد وجهها براحتيها وتعفر رأسها في الرمل الرطب.

كنا ننأمل مشهد اليأس هذا من فوق آخر رأس مستدق دون أن نواتينا القوة على التقدم أو التراجع. كان القارب، وقد شد إلى الصخرة، واسكن دون هلب في المؤخرة ليحتجزه ويستبقه — كان قد انتزعه الموج أثناء الليل وتحطم على أسنة الصخور التي كان مفروضًا أن تحميه. كان نصف القارب المنسكود ما بقي مشدودًا بالحبل إلى الصخرة حيث ربطناه بالراحة. كان يتخبط في أنين مشغوم

شبيه بصوت الآدميين عند النزاع الأخير إذ يخفت ويثول إلى تهادج محتسق يائس .

وكانت الأجزاء الأخرى من جدران القارب ، والمؤخرة ، والشرع ، والجوانب ، والألواح المطلية منشورة على الساحل شذر مذر ، شبيهة بأشلاء الجثث التي مزقتها الذئاب الضارية عقب معركة .

وعندما بلغنا الساحل كان الصياد الشيخ مشغولا بالعدو من حطام إلى حطام . كان يرفعها ويتعلق فيها بهمين جفت مآقيها ، ثم يدعها تسقط تحت قدميه ، ويبعد . وكانت جرازيلات تنحب ، جالسة على الأرض ، دافئة رأسها في مثرها . وكان الأولاد يركضون بسيقانهم العارية في البحر صائحين وراء أنقاض الألواح . يحاولون توجيهها نحو الساحل .

أما السيدة المعجوز فلم تكف عن التشجيع وعن التحدث وهي تنشج . لم تلتقط أسماعنا سوى أصوات مهمة وأنان مقطعة تشق الهواء شقا وتفترق القلب فربا . كانت تصرخ شاتمة مشيرة إلى الأمواج بقبضة يدها : « أيها البحر المتوحش .. أيها البحر الأصم .. أيها البحر الآعن من شياطين جهنم .. يا من لا قلب لك ولا شرف .. لينك أخذتنا نحن .. نحن جميعا .. ما دمت قد سلبتنا مصدر قوتنا .. خذ .. خذ .. خذ .. خذ .. خذني على الأقل مقطعة الأوصال ، ما دمت لم تأخذني بأكلى .. »

وبينما كانت تنطق بهذه الكلمات ، كانت قهض على قعدتها ، وترى
في البحر قطاعا من ثوبها وخصلا من شعرها . وكانت تلوح للبحر مهددة
متوعدة ، وتطأ الزبد بقدميها ، وبعد أن انتقلت من الهياح إلى النواح ،
ومن التشنج إلى الحنو ، عمدت إلى الجلوس على الرملة معتمدة جبينها
بيديها ، ناظرة إلى الألواح المنفصلة ترتطم بالصخرة وهي باكية
منسحبة . كانت تصيح كأن هذا الحطام أوصل مخلوق عزيز لا يكاد
يكون مجرداً من الشعور : دأيها القارب التمس . . أهذا هو المصير
الذي كننا ندين به لك ؟ أفلم يكن واجبا علينا أن نهلك معك ؟ أن
تهلك معا كما عشنا معا ! أن نهلك هنا أشلاء ، حطاما ، ترابا ، صارخين ،
أمواتا ، على الصخرة حيث ناديتنا طول الليل ، وحيث كان من واجبا
أن نتفذك ! ترى ما رأيك فينا ؟ لقد خدمتنا أحسن ما تكون الخدمة ،
فإذا بنا نخذلك ، ونختل عنك ، ونضيعك . نضيعك هنا ، على قيد
خطرات من المنزل ، وعلى مسمع من صوت سيدك ! ملق على الشاطئ
كبجنة كلب أمين يطرحه الموج عند قدمي سيده الذي أغرقه !

ثم خنقت عبراتها صوتها ، ثم أنشأت تعدد مزايا قاربها واحدة
فواحدة ، وتحصى كل ما كفهم من مال ، وكل ما كانت تربطها بهذا
الحطام التمس الطافي من ذكريات . كانت تقول : أكان لأجل هذا أننا
ومناه أحسن ترميم وطيناء خير طلاء بعد صيد التونة الأخير ؟ أكان
لأجل هذا أن ابني البائس — قبل أن يقضى نحبه ويخلف لي أوائك
الأطفال الثلاثة بلا أب ولا أم — قد شيده كله تقريبا بيده باذلا
مزيد عنايته وغاية حبه ؟ عند ما كنت أجيء لأخذ السلال من قاعه

كنت أعرف ضربات « قدوم » ابني في الخشب ، فأقبلها تخليداً لذكره .
وما هي ذى مستقبلها الآن كلاب البحر وسرطانة ..

خلال أيام الشتاء كان قد حضر هو نفسه بمديته صورة القديس
غفرسوا على لوح من الألواح نبتة في المقدمة لتقيه شر الجو الرديء .
يا للقديس القامى الفؤاد ! كيف أبدى شكره وعرفانه ؟ .. ماذا فعل
بأبني ، وبزوجي ، وبقاربه الذي تركه لنا من بعده لنكسب قوت
أولاده البؤساء ؟ وكيف وثق نفسه هو ، وأين هي صورته ، ألعوبة
الأمواج ؟ ..

وصاح واحد من الطفلين ، وهو يلتقط على الشاطئ ، من بين
صخرتين ، شظية من القارب انحسرت عنها موجة « أماء .. أماء ..
ها هو ذا القديس .. » وإذا المرأة التعسة تنمى غضبا كله ، وتخترصاتها
كلها ، وتغذف نفسها في الماء حافية نحو الطفل ، وتتناوله شظية اللوح
التي حفرها ابنها ، وتلصقها بشفتيها ، وتغرقها بعبراتها . ثم ذهبت فقعدت
ولاذت بالصمت .

- ٢٣ -

عاشنا يديبو والشيخ على جمع جميع قطع القارب واحدة واحدة .
وجدنا قاعدته المبتورة أقرب إلى الساحل مما كانت ، وأقنا من خطامه
هذا كومة مازال يمكن أن ينتفع ببعض ألواحها وحدائدها أولئك
القوم البؤساء . ودحرجنا بعض الحجارة الضخمة ووضعناها فوقها
حتى لا تبدد الأمواج إذا علت بقايا القارب العزيزة هذه ، وعدنا

أدراجنا إلى المنزل سائرين في أسي وعلى مبعدة وراء مضيفينا . ولم
نمكن غيبة القارب وحالة البحر تسمحان لنا بالرحيل .

وبعد أن تناولنا ، وقد غضضنا الطرف ولم نفيس ببنت شفة ،
كسرة من الخبز وبعض لبن الماعز الذي جاءتنا به جرازيل على كشب
من النبع ، تحت شجرة التين ، تركنا المنزل لمناحته ، وانطلقنا نتجول
بين عرائش الكرم العالية وتحت شجر الزيتون في هضبة الجزيرة
الشاهقة . .

— ٢٤ —

كننا لا نسكاد نتحدث ؛ صديقي وأنا ، لكن كانت تراودنا فكرة
واحدة ، فسلكننا بالغريزة كل الدروب المفضية إلى رأس الجزيرة
الشرقي والتي لا بد توصلنا إلى مدينة بروسيدا القريبة . وأعادنا عدة
مرات إلى الطريق الصحيح بعض رعاة الماعز ؛ وبعض الفتيات
المرتديات زياً يونانياً ، اللاتي صادفناهن حوامل فوق رؤوسهن الزيت . .
وبلغنا المدينة بعد مسيرة ساعة . .

وأخيراً قال لي صديقي : هذه أهمرى مغامرة مؤسفة . . فأجبته
قائلاً : يجب أن نحولها إلى فرحة لأولئك القوم الأخيار ، فاستأنف ،
وهو يخشخش في منطقتة الجلدية عدداً طيباً من الدنانير الذهبية . كنت
أفكر في ذلك ، . . — وأنا أيضاً ، بيد أنه ليس في كيس نقودي
سوى خمسة دنانير أو ستة ، ومع ذلك فقد تسديت في نصف الشر .
فلا مناص من أن أحمل نصف التعويض . . فقال صديقي : أنا أكثر .

منك مالا ، ولى وصيد لدى صاحب مصرف فى نابولى . سأقدم كل مايلزم . وسوف نسوى حسابنا فى فرنسا .

- ٢٥ -

وبينما نحن نتحدث على هذا المنوال ، كنا نهبط بحفنة فى شوارع بروسيدا المنحدرة . ولم نلبث أن بلغنا البحرية ، فكذلك بسمى الساحل المجاور للشرم أو للمرفأ فى الارخبيل وعلى شواطئ إيطاليا . كان الساحل مغطى بقوارب إيسكيا وبروسيدا وناپولى التى اضطرتها عاصفة الباردة إلى التماس ملاذ فى أمواحه . وكان النوتية والصيدون ينامون فى وهج الشمس ، وفى هدير الموج المستهدى ، أو يتحدثون فى جماعات جلوساً على الرصيف . ومن ثوبنا ، وقلنسوتنا الصوفيتين الخراوين اللتين تغطيان شعرنا ، حسبونا فتيين نوتين من توسكانيا أو جنوة أنزلتهما فى بروسيدا إحدى السفن التى تحمل الزيت أو النيف من إيسكيا .

جسنا خلال البحرية ، نبحث بالعين عن قارب متين حسن العمرة . والعدة ، يستطيع شخصان أن يديراه بسهولة ، وتكون مقاييسه وقوابله أقرب ما يمكن إلى القارب الذى فقدناه . ولم نجد مشقة فى العثور عليه . كان يتبع صياداً غنياً من الجزيرة يملك قوارب كثيرة غيره . ولم يكن هذا القارب قد استعمل بعد سوى بضعة أشهر . فقصداً إلى المالك ، الذى أرشدنا إلى مرساه صيدية الميناء .

كان هذا الرجل مرحاً ، مرهف الحس ، طيباً . وقد تأثر للقصص

ألقى سردناها عليه بشأن كارثة الليل ويأس ابن جلده البائس . إلا أنه لم يخف قرضاً من ثمن قاربه ، وإن لم يغال قط في قيمته ، وتمت الصفقة لقاء اثنين وثلاثين ديناراً ذهبياً دفعها له صديقي نقداً . وبوساطة هذا المبلغ أمسى القارب وعدة جديدة تماماً من أشربة ، وسلال ، وحبال وهلب حديدى - أصبح هذا كله ملكنا .

بل إننا استكملنا تجهيزه بأن اشترينا من أحد دكاكين المرفأ معطفين من الصوف الأصهب ، أحدهما للشيخ والآخر للصبي ، وأضفنا إليه بعض الشباك من مختلف الأنواع ، وبعض سلال السمك ، وبعض الأدوات المنزلية الغليظة مما تستعمله النساء . واتفقنا مع تاجر القوارب على أن ندفع له في اليوم التالى ثلاثة دنانير ذهبية إذا اقتيد القارب في اليوم نفسه إلى النقطة التى عيناها على الشاطئ . وإذا كان النوء يهدأ ، وأرض الجزيرة المرتفعة تحمى البحر من الريح فى هذه الناحية نوهاماء فقد تعهد الرجل بذلك ، وقفلنا راجعين برأ إلى دار أندريا . .

- ٢٦ -

جعلنا تقطع الطريق الهوينى ، فجلس تحت الأشجار ، ونستظل فى الخائل ، نتكلم ، ونفلم ، ونساوم جميع فتيات بروسيدا فيما يحملن من سلال التين ، والبشملة ، والعنب ونفسح الوقت للساعات كيما تمر . وإذا بنا ، من فوق رأس من الرؤوس ، نبصر قاربنا ينسرب متلهصاً تحت ظل الشاطئ ، فغدينا المسير لى نصل فى وقت واحد مع المجدفين .

لم يكن يسمع السامع خطوة ولا صوتا في البيت الصغير والكرمة
التي تحيط به . وكانت حمامتان جميلتان ذواتا أرجل كبيرة يسكسوها
الوغب وأجنحة رقطاء ، تلتقطان حب الأذرة على سور الشرقة —
كنانا علامة الحياة الوحيدة التي تدب في البيت . وصعدنا إلى السطح
في غير ما ضجيج ، فوجدنا الأسرة فوقه تأخذها سنة من سبات عميق .
وكان الجميع ، خلا الطفلين اللذين استراح رأساهما الجبلان جنباً إلى جنب .
على ساعد جرازيل ، ينامون في حالة الإنهاك الناشئ عن فرط
الأم .

كانت الأم المعجوز معتمدة رأسها بركبتها ، وتنفسها الهادئ
يبدو كأنما لا يزال مختلطاً بالنشيج .

وكان الأب مستلقياً على ظهره ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره ،
في وجم الشمس .

وكانت عصافير الجنة تسف شعره الرمادي اللون في حومانها السريع ،
وكان الذباب يغطى جبينه الناضح بالعرق . وكان خيطان محوران
متعرجان ومنحدران حتى فم الرجل ينيان عن أن قواء انهارت وأنه وجد
السكينة في الدموع .

وقد فرى هذا المشهد قلبينا فرحاً ، بيد أن فسكرة السعادة التي سوف
نردها لأولئك القوم التعساء كانت لنا سلوة وجزاء ، أيقظناهم ، وأقمنا
فوق أقدام جرازيل وأخويها الصغيرين ، على أرضية السطح ، ما كنا
قد وسقناه في الطريق من خبز طازج ، وجبن ، وقديد وعنب ،
وبرتقال وتين . ولم تجرق الفتاة والطفلان على النهوض في غمرة هذا
الغيث من الخير الوفير الذي انهمر حولهم كأنما من السماء . وشكرنا

الآب نياية عن أسرته . وشاهدت الجدة كل ذلك بعين خافية كالحة
وكان التعبير المرتسم على سياتها أقرب إلى الخنق منه إلى حد
المبالاة .

قال صديقي للشيخ « هيا ، يا أندريا ، يجب ألا يبكي الرجل مرة
ما يمكن أن يعوضه بشيء من العمل والشجاعة . فشمعة ألواح في الغابات
والآجام وأشرطة في القنب الذي ينبت . وما من شيء لا ينبت من
جديد إلا حياة الإنسان التي تبليها الأحزان . وإن يوماً واحداً من
الدموع ليستنفذ من القوة ما لا يستنفذه عام من العمل . هيا انزل معك
وبرفتك زوجك وأولادك . نحن نوثقتك ، وسوف نعاونك على أن
ترفع هذا المساء إلى الفناء حطام قاربك الغريق . وسوف تصنعون هذه
أسياجاً ، وأسرة ، ومناخذ ، وأثاثاً للأسرة . وسوف يساعدك يوماً
أن تنام في شيخوختك هادئاً وسط هذه الألواح التي طالما همدتك فوق
الأمواج : فغمغمت الجدة في صوت جامد ، ليتها تكفي فقط لصنح
نعوش لنا . »

— ٢٧ —

وعلى أثر ذلك نهضوا ، وتبعونا جميعاً هابطين متدرج الشاطئ على
سهل ، ولما كنا لاحظنا أن منظر البحر وهدير الموج كان لهما في نفوسهم
وقع سيء ، وإن أحاول وصف ما تولى أولئك القوم من دهش واعتباط ،
عند ما رأوا من فوق آخر درجات المتدرج . القارب الجديد الجميل
يتألا في وهج الشمس وقد جر على الرملة بجوار حطام القارب القديم ،
وقال لهم صديقي : « إنه لكم ، لقد خروا جميعاً ساجدين كأنما انقضت

تعليمهم صاعقة واحدة من الغبطة . كل منهم على الدرج الذى كان عليه ،
ليشكروا الله ، قبل أن نسمعهم ألفاظهم لكي يشكرونا نحن . ولكن
كان حسبتنا من الشكر سعادتهم .

ونفضوا ثانية على صوت صديقتى الذى ناداهم . وعدوا فى أثره إلى
القارب . وداروا حوله أول الأمر عن بعد وبتهيب كما لو كانوا
يوجسون خفية أن يكون شيئاً أوهدياً وأن يتلاشى بما يشبه السحر . ثم
دنوا منه عن كثب . ثم أنشأوا يأسرونه ويردعون اليد التى لمسته إلى
جباهم يرشفاهم . وأخيراً جعلوا يطلقون عبارات الإعجاب والاعتباط
ثم شبكوا أيديهم فى سلسلة ، ابتداء من السيدة العجوز إلى الأطفال
الصغار ، وراحوا يرقصون حول القارب .

- ٢٨ -

كان بيهو أول من ركب متنه . جلس فى المحل الملاصق للتقدمة .
وجعل يخرج من قاعه كل العدة التى ملأناه بها واحدة واحدة : الحلاب ،
الحبال ، الجراذات الآذان الأربع ، الأشرطة الجديدة الجميلة ، السلال ،
المعطفين الواسع الأكم . كان يرن الحلاب ، ويرفع المجاديف فوق رأسه
ويذشر القماش . ويفرك بين أصابعه وير المعطفين الخشن . ويرى جدته
وجده وأخته كل هذه السكنوز وهو يصيح ويرقص غبطة وجدلاً .
وكان الأب والأم وجرازيل يبتسمون ويستمعون وهم ينقلون
نظرهم بين القارب وبيننا تبعاً .

وكان النوتية الذين أوصلوا القارب قد تواروا خلف الصخور
فيكون أبعداً . كان الجميع يشكرونا ويثنون علينا . وافتربت جرازيل

من جدتها . غاضة جبينها . مظهرة مزيداً من الجد في شكرها . وسمعتها
تهمس مشيرة إلينا بإصبعها :

« كنت تقولين لإنهم وثنيون . وكنت أقول لك لإنهم أخلق بأن
يكونوا ملائكة فن . منا يا ترى كان على حق ؟ ، فارتمت السيدة العجوز
على أقدامنا . والتمست منا أن نصفح عن شكوكها . ومنذ تلك الساعة
أحببنا تقرباً بقدر ما كانت تحب حفيدتها أو بيو .

— ٢٩ —

صرفنا فونية روسيدا بعد أن نقدناهم الدنانير الثلاثة المتفق عليها
وتكفل كل منا بأداة من الأدوات التي ازدحم بها قاع القارب . و حملنا
إلى البيت كل ثروات الأسرة السعيدة هذه بدلاً من حطام ماها . وفي
المساء عقب العشاء ، وعلى ضوء المصباح ، نزع يديو من وسادة سرير
جدته شظية الخشب المحطمة التي كان أبوه قد حفر فيها صورة القديس
فرنسوا فسواها مربعة بالمنشار ، ونظفها بمديته ، وصقلها وطلاها حتى
استحالت جديدة . وأزمع أن يثبته في اليوم التالي في طرف المقدمة
الداخل . حتى يكون في القارب الجديد نفحة من القارب القديم . كذلك
كان الناس في الزمن الحالى عند ما يشيدون معبداً مكان معبد آخر يعنون
بأن يدخلوا في بناء البنية الجديدة مواد المعبد القديم . أو على الأقل
عموداً من أعمدته . حتى يكسب الجديد نفحة من العراقة والقداسة .
وحتى يكون للذكرى — البالية الغليظة في ذاتها — وهبتها وهبتها
في القلب بين آيات المحراب الجديد . إن الإنسان هو الإنسان حيثما
كان . إن طبيعته المراهقة مجبولة دائماً على نفس الغرائز سواء تعلق الأمر

بالباريثون أو بكنيسة سان بيير في روما . أو بقارب حدير اصياد
على ملساء شاطئ بروسيديا . »

— ٣٠ —

أهل تلك القيلة كانت أسعد الليالى التى كتبتهما العناية الإلهية لهذا
البيت منذ أن قد من الصخر إلى أن يؤول إلى تراب . لقد نمنا على
لفحات الريح لأشجار الزيتون . وعلى هدير الموج على الشاطئ وعلى
ضوء القمر يسبح شرفتنا . وعند ما صبحونا كانت السماء صافية الأديم
كالبلور المصقول . والبحر غامقاً مخططاً بالزبد كأن الماء يتصبب عرفاً
من سرعة الركض وفرط التعب . بيد أن الريح . وهى أكثر عتواً .
كانت تعصف دائماً . وكان الثثار الأبيض الذى تركه الأمواج على
طرف رأس مسينا يزداد عن البارحة ارتفاعاً . كان يفرق شاطئ كوم
بأسره فى مد وجزر من الضباب البراق لا يكف عن الارتهاق والانحصار
ولم يكن الرائي يرى أى شراع يخفق على صفحة خليج جايتى ولا خليج
بايا . وكانت خطاطيف البحر تصفع الزبد بأجنحتها البيضاء . وهى
الطائر الوحيد الذى ينشئ فى السماء صفرة . ويصبح غبطة خلال حوادث
الغرق ، شأنها شأن أهل خليج تريباسيه الملعونين أو تلك الذين يترقبون
فريستهم من السفن المشرقة على الغرق .

شعرنا دون أن نفصح بغبطينة دقة لأن يحببنا الطلح الردى
هكذا فى بيت الصياد وكرمه ، فقد أتاح لنا ذلك أن نملئذ بموقفنا
وأن نتبع ببطينة تلك الأسيرة المعلقة التى تعلقنا بها تعاق الأطفال .
استعجزتنا الرياح والأنواء هنالك تسعة أيام كاملة ولعلنا تمنينا .

وأنا على الأخص ، ألا تنتهى العاصفة قط ، وأن تاجئنا ضرورة
قهرية وحتمية إلى إلتحاق سنيين عدة في المسكان الذى وجدنا فيه أنقمنا
مأخوذين وسعداء إلى هذا الحد . كانت أيامنا على كل حال تجرى
دون أن نشعر بها وعلى نسق رتيب . وهذا أصدق برهان على أن النزر
القليل يكفى للسعادة حينما يكون القلب فنيا ويتمتع بكل شيء . كذلك
فإن أبسط الأغذية تسند وتجدد حياة الجسد عندما تضاف عليها الشهية
نكهة وتكون الأعضاء سليمة غضة .

— ٣١ —

أن نصحو على زقزقة عصافير الجنة تسف سقننا المقام من الأوراق
فوق الشرفة حيث نمنا ، أن نسمع صوت جراز يلا الطفولى وهى تشدو
فى السكرمة شدوا خفيتا مخافة أن تفلق نوم الغرباء ، أن نزل مهرولين
إلى الشاطئ اسكى نغطس فى البحر ونسبح بضع دقائق فى شرم صغير
يتألق رمله الدقيق من خلال شفوف ماء عميق ، لا تنفذ إايه حركة المد
العالى ولا زبدته ، ثم أن نصعد إلى البيت على مهل ونحن نجفف فى
الشمس شعرنا وندفى أكتافنا المبتلة من الحمام ، أن نطفر فى السكرمة
بقطعة من الخبز والجبن الأبيض نحضرها الفتاة لنا وتشاطرنا قطعها ،
أن نشرب ماء النبع الصافى الزلال الذى تغترفه جراز يلا وتملا به الجرة
للصغيرة التى تملأ على ذراعها وقد توردت وجنتاها حينما تلتصق شفاهنا
بفوهتها ، ثم أن نعاون الأسرة فى ألف عمل ريفى بسيط بالمنزل
والحديقة ، فنصلح أجزاء السور الذى يلتف بالسكرمة ويسند الشرفة

وأن ننزع الأحجار الضخمة التي انحدرت في الشتاء من فوق هذا السور على أعواد السكروم الصغيرة ، واقتحمت مكان القليل من المزروعات الممكن استنباتها بين الأعواد ، وأن نحمل في السلال القرع العسلي الضخم الذي كانت الواحدة منه حمل رجل ، ثم أن نقطع حرائشه التي تكسو الأرض بأوراقها العريضة التي تعرقل السير بين فروعها المتشابكة وأن نشق بين كل صنف من الأعواد ، تحت الخنازل العالية ، قناة صغيرة في الأرض الجافة كي يتجمع فيها ماء المطر من تلقاء نفسه ويروى أزمننا طويلا ، وأن نحفر للغرض نفسه ما يشبه الآبار تحت أشجار التين والليمون على شكل أقواع : تلك كانت مشاغلنا في الصباح حتى تسقط أشعة الشمس عمودية على السقف ، وعلى الحديقة الغناء وترغمنا على أن نلوذ ببنى الخنازل . كان الشفوف وانعكاس أوراق السكرم يصيغان ظلالها المفوقة بلون صارخ موه بالذهب . .

الفصل الثاني

- ١ -

كانت جراز يلا تعود إلى الدار لتغزل بجوار جدتها أو لتعد وجبة منتصف النهار . أما الصياد الشيخ ويبيو فكانا ينفقان النهار بطوله على شاطئ البحر في تنظيم القارب الجديد ، في تزويده بالاستكمالات التي يوحى بها لهما شغفهما بملاصقتهما الجديد ، وفي تجربة الشباك في ظل الصخور . وكانا يحملان لنا دائما ، لوجبة الظهر ، بعض سرطان البحر ونعبانة ذات القشور التي يفوق لمعانها لمعان الرصاص المعصور . وكانت الأم تقلبها في زيت الزيتون . وكانت الأسرة تحتفظ بهذا الزيت ، وفقا لعادة البلد ، في بر صغيرة محفورة في الصخرة القريبة من البيت ، مغلقة بحجر ضخيم مثبت فيه حلقة من حديد . وكانت بعض خيارات مقلية أيضا ومقطعة إلى شرائح في المقلاة ، وبعض الحمار الطازج شبيهة « الميديا » والذي يدعى فاكهة البحر ، كانت تأتلف منها هذه الوجبة الشهية ، الوجبة الرئيسية ، وأدسم وجبات اليوم . وكان بعض العنب والموسكات ، ذى العناقيد الصفراء المستطيلة ، الذي قطفته لنا جراز يلا في الصباح ، وحفظته فوق أغصانه وغطته بأوراقه ، وقدمته لنا على

سلاسل مسطحة من الخيزران المجدول — كان يؤلف الحلوى . وكان
عود أو عودان من الكرفس الأخضر النقي المغموس في الفلفل ،
والذى تمطر رائحة ألسونه الشفاه وتذشى القلب — يقوم مقام الشراب
والقهوة ، طبقا لعادة نوتية نابولي وفلاحيها . وبعد الغداء كنت
أمضى وصديقى نندب ظلة دانية على قمة الصخرة مظلة على البحر وشاطئ
بايا ، لننشق فيها وقت القيلولة فى التأمل والتخيل والمطالعة حتى
ساعة الاصيل .

- ٢ -

لم نكن قد أنقذنا من الأمواج سوى ثلاثة مجلدات فريدة ، ذلك
أنها لم تكن فى حقيبتنا عندما رميناها فى البحر : كان أحدها كتبيا
إيطاليا المؤلف أوجو فوسكولو عنوانه « رسائل جاكو بو أوريس »
هو أشبه شىء بفرير نصفه سياسى ونصفه روائى ، تختلط فيه عاطفة
شاب إيطالى نحو بلاده بعاطفته نحو « فينيسية » حسنة . إن الحماس
المزدوج الذى تغذيه نار العاشق والمواطن المزدوجة هذه ، تذكى فى
روح أوريس حمى لا يتحمل نوبتها الشديدة رجل مرهف الحس
مستقام فتفضى به إلى الانتحار . كان هذا الكتاب . وهو نسخة
حرفية لكن منمقة وواضحة من « فرير » الذى ألفه جوته — كان
يدور فى يد جميع الشبان الذين يراودهم . مثلنا ، هذا الحلم المزدوج
الأولئك الخليقين بأن يحملوا بشىء عظيم : الحب والحرية .

عينا كان بوليس بونابرت ومورا يصادر الكتاب ويضطهد المؤلف . فقد كان قلب الوطنيين الإيطاليين كفاة ، وأحرار أوروبا قاطبة كنفنا المؤلف . وكان صدر جميع الشباب مثلنا محرابا للكتاب ، إذ كنا ندسه في صدورنا لننتقم مبادئه ، وكان أحد الكتبا بين الآخرين اللذين أنقذناهما بول وفرجينى ، لبرناردان دى سان بيير . دستور الحب البرىء هذا وكان الآخر كتابا لتاسيت . صفحات ملطخة بالفسق وبالعار والدم . لكن فيها تمسك الفضيلة الرواقية منقاش التاريخ وعدم تأثره الظاعرى لتوحى إلى أولئك الذين يفهمونها كراهية الطغيان . وقوة الخواتيم العظيمة . والتعطش للمبهمات السكرية .

كانت هذه الكتب الثلاثة بمحض الصدفة تتجاوب مع المشاعر الثلاثة التى كانت منذئذ ، كأنما بالحدس ، تختلج في نفوسنا الشابة : الحب ، الحماى لتحرد إيطاليا وفرنسا ، وأخيراً الشغف السياسى وسير عظام الأمور التى رسم تاسيت لنا صورتها ، ومن أجلها غمس أرواحنا مبكراً في دم فرشاته وفي نار الفضيلة القديمة . كنا نقرأ بصوت عال ، كل بدوره ، معجبين تارة ، باكين تارة ، وحالمين تارة أخرى . وكنا نقطع هذه المطالعات بفترات صمت طويلة ، وصيحات تعجب متبادلة ، كانت لدينا بمثابة تفسير عفو الخاطر لمشاعرنا ، وكانت تذهب مع أحلامنا أدراج الرياح .

كنا نضع أنفسنا بالفسكر في بعض المواقف التى يسردها لنا الشاعر أو المؤلف ، خيالية كانت أو حقيقية . كنا نتخذ لأنفسنا مثلاً أعلى

للعاشق أو للواطن . للحياة السرية أو للحياة العلنية . للنبطة أو للفضيلة .
كان يستهويننا أن نخرج تلك الظاروف العظيمة . تلك المصادقات العجيبة
في أزمان الثورة ، التي تكشف فيها الميعرية للجماهير أكثر الناس نخول
ذكر وتستدعيهم — كأنما بالاسم — لمساكفة الظلم وإنقاذ الآدم ،
ثم يروحون ضحية لتقلب الشعوب وجموحها ، فيمدون شتقا ، على
مرأى من الزمن الذي يقلب لهم ظهر الجبن . ومن الخلف الذي
يثأر لهم .

ما من دور ، مهما بلغ من البطولة إلا وجد أنفسنا في مستوى
المواقف . كنا نعد أنفسنا لكل أمر ، وإن لم يحقق الحظ يوما هذه
الحن الكبرى التي خضناها بالفكر ، فقد كنا ننتقم منه سلفا بازدرائه .
كانت جهوانحنا تنطوي على عزاء النفوس القوية هذا : لئن ظلت حياتنا
تافهة . عادية ، خاملة . فذلك لأن الحظ قصرت همته عنا . فلنسنا نحن
الذين قصرت هممتنا عن الحظ !

— ٥ —

عندما كانت الشمس تغفل للإياب كنا نقوم بجولات طويلة خلال
الجزيرة : كنا نخترقها في كل اتجاه . وكنا نذهب إلى المدينة لابقاع
الحيز والخضر التي تعوز حديقة أندريا . وكنا أحيانا نجتلب بعض
الطباق . أفيون النوتي هذا ، الذي يحيي همته في البحر . ويفرج عنه
في البر . وكنا نؤوب عند انسداد الليل وقد امتلأت جيوبنا وأيدينا
بتلك الهدايا المتواضعة . وكانت الأسرة تجتمع في المساء فوق السطح
الذي يسمى في نابولي « استريكو » في انتظار حلول ساعة النوم . وما

من شيء في ليالي هذا الإقليم الجميلة أبهج من مشهد السطح هذا يصبح
في ضوء القمر .

في الريف . يماثل المنزل الخفيف المربع قاعدة تمثال عتيقة تحمل
زمرأ من الاحياء وتماثيل تختلج بالانفاس . إذ يصعد أهل المنزل
جميعاً إلى السطح حيث يتحركون أو يجلسون في شتى الأوضاع . ويعكس
ضوء القمر أو بصيص المصباح هذه الصور ويرسمها في القبة الزرقاء .
هنالك يرى الرائي الأم المعجزة تقوم بالغزل ، والآب يدخن غليوناً
من بخار ذا أنبوبة من يراع . والفتيان يعتمدون على الحافة ويتنعمون
في أنغام مستطيلة بتلك الألحان البحرية والريفية التي تنطوي لإيقاعاتها
الممتدة والمؤثرة على مسحة من أنين الخشب يعذبه الموج أو صرير الجدد
« الصرصار » تلمحه الشمس . وأخيراً يرى الفتيات بثيابهن القصيرة
وأقدامهن الحافية ، وستراتهن الخضراء المزركشة بالذهب أو بالخرز .
وشعورهن الفاحمة المرسلة السابحة فوق أكتافهن . والمصوبة بمنديل
معقود على العنق في عقد ضخمة لحماية شعورهن من التراب .

وكثيراً ما يرقص هنالك . منفردات أو مع شقيقاتهن . فتمسك
إحداهن قيثاره . وترفع الأخرى فوق رأسها دفا تحيط به صنوج
(جلاجل) من نحاس . ولأن إحدى هاتين الآتين شاكية خفيفة
الوطأ والأخرى رتيبة صماء الوقع فهما تنسجان انسجاماً رائعاً لترجعا
بلا افتتان اللحنين اللذين يتناوبان قلب الإنسان : الحزن والفرح . هاتان
آلاتان يسمعهما السامع في ليالي الصيف فوق جميع أسطح الجزر تقريباً
أو ريف نابولي . بل فوق القوارب . هذا النغم الهوائي الذي يتعقب
الأذن من بقعة إلى بقعة . ابتداء من البحر حتى الجبل هو أشبه شيء

عطين حشرة أخرى تولدها الحرارة وتدفعها إلى الطنين تحت هذه السماء
الجميلة. هذه الحشرة النحسة على الإنسان الإنسان الذى يتغنى بضعة أيام أمام
الله بأهازيج شبابه وغرامه ثم يصمت إلى الأبد . ما استطعت أن أسمع
هذه الأنغام الشائعة فى الهواء من فوق الأسطح إلا توقفت وإلا شعرت
بضيق يهصر قلبى حتى ليكاد ينمجر من الفرح المسكنون الدافق أو من
الحزن الغلاب القاهر .

- ٦ -

كذلك أيضا كانت الأوضاع . والأنغام . والأصوات على شرفة
سطح أندريا . فكانت جرازبلا تعزف على القيثارة . أما بيبيينو فكان
يصاحب شقيقته بالنقر بأصابعه على الدف الصغير الذى كان يستعمل
فيما مضى لتنويمه فى المهد . ومع أن الأدوات كانت مرحة والأوضاع
كانت أوضاع غبطة فإن الألحان كانت حزينة ، والأنغام البطيئة القليلة
تنفذ إلى شفاف المهجة الوسنانة . كذلك شأن الموسيقى حينما لا تسكن
نفسية فارغة للأذن . بل نشيجاً متسقاً للعواطف التى تنبثق من النفس
عن طريق الصوت . فكل ألحانها زفرات . وكل أنغامها تسيل بالعبرات
مع الإيقاع . فبحال أن تمس قلب الإنسان مساقياً دون أن يذرف
الدمع ، فإلى هذا الحد تجد الطبيعة مترعة فى باطنها بالحزن والشجن .
وللى هذا الحد تجدها إن رجها أحد تطفح الثمالة على شفاهنا والغشاوة
على أبصارنا !

حتى عندما كانت الفتاة ، نزولا على إلحاحنا ، تمهض في خفرك
الترقص الترائلا على نغمة الدف الذي يدقه أخوها . دائرة حول نفسها
مدفوعة بفعل الحركات الدائرية لتلك الرقصة الوطنية . رافعة ماعديها
برشاقة ، مقلدة بأصابعها قرعة الصنوج . ومسرعة ديبب أقدامها
الخافية كأنه قطرات الغيث تساقط على الشرفة . نعم حتى عندئذ كان يخيم
في الجو . وفي الأوضاع . بل وفي سورة هذه النشوة المعتملة ، مسحة
من الجد ومن الحزن . كأن كل غمطة ليست إلا جنونا عابرا . وكان
اغتنام بارقة من السعادة يقتضى الشباب والجمال نفسهما أن يقرقا بالنشوة
لدرجة الدوار ، وأن يمثلا بالحركة لدرجة الخيال !

وكثيرا ما كنا نتبادل أطراف الحديث الجاد مع مضيفينا . فنجعلهم
يقصون لنا حياتهم ، وتقاليدهم . أو ذكرياتهم العائلية . وكل أسرة
إنما هي قصة بل قصيدة لكل من يعرف كيف يتصفحها . وكان لهذه
الأسرة أيضا عراقتها . وثروتها ، وهبتها في الماضي البعيد .

كان جد أندريا تاجرا يونانيا من جزيرة إيجين . عمدة الباشة
حاكم أثينا إلى اضطهاده ، فرحل ذات ليلة مع زوجته ، وبناته
وأبنائه ، وثروته على سفينة من السفن التي يملكها للتجارة ، التجأ إلى

بروسيدا حيث كان له وكلاء ، وحيث كان السكان يونانيين مثله .
وهناك اشترى أملاكا واسعة درست واندثرت معالمها ما عدا المزرعة
الصغيرة التي كنا فيها ، واسم أجداده محفوظ على بعض المقابر في مدافن
المدينة . وتوفيت البنات راهبات في دير الجزيرة . وفقد الأبناء الثروة
في الأنواء التي ابتلعت سفنهم . وآلت الأميرة إلى الاضمحلال . بل
إنها بدأت لقبها اليوناني الجميل بلقب مغمو ر الصياد من بروسيدا . كان
أندريا يقول لنا : « عندما يذل بيت بعد عز ينتهى الأمر إلى أن يكسأ
لآخر حجر فيه ، فمن كل ما كان يقتنيه جدى لم يبق سوى مجذافى »
والقارب الذى رددتهما إلى ، وهذا الكوخ الذى يهجز من القيام بأود
أصحابه ، ونعمة الله . »

- ٩ -

وكانت الأم والفتاة تسألانا أن نصارحهما بدورنا من نكون ،
وأي موطنا ، وماذا يعمل أهلنا ، وهل لنا أب ، وأم ، وأخوات ،
وإخوة وبيت ، وأشجار تين وكروم ، ولماذا تركنا وراءنا ذلك كله
ونحن في مثل هذا الشهاب لناقى هنا لنجذب ونطالع ، ونكتب ، ونعلم
في الشمس ، ونبيت على البر في خليج نابولي ؟ عيشاً كنا نتكلم ، فإننا
لم نفلح قط في إقناعهم بأننا جئنا كيما نتأمل السماء والبحر ، كيما نبخر
روحنا في الشمس ، كيما نشعر بشبابنا يغلي في دخيلتنا . وكما نجمع أحاسيس
ومشاعر ، وأفكاراً لعلنا أن ننظمها فيما بعد في أشعار كاتى يرونها
منظومة في كتبنا . أو كاتى يرددها شعراء نابولي المرتجلين للتوتية في
مساء الأحد على الرصيف أو في المارجليتا .

وكانت جراز يلا تقول لنا ، وقد انفجرت في الضحك : « أترمون
إلى السخرية منى ؟ أتم شعراء ؟ لكن شعركا ليس أشعث . وعيونك
لا تنفث شرراً مثل أولئك الذين يدعون كذلك على أرصفة البحرية
أنهم شعراء ؟ ولا تعرفون أن تعرفوا نعمة واحدة على القيثارة ؟ بماذا
إذن تصاحبون الأغاني التي تنشدونها ؟ ثم تهز رأسها هذا وتزم شفقتها
شرراً ، وقد عيل صبرها لظننا أننا لا نريد أن نصارحها بالحقيقة .

— ١٠ —

وفي بعض الأحيان كان يعمل بنفسها شك آثم فيلقى في نظرتها
شيئاً من الريبة وظلا من الخشية . وكنا نسمعها تهمس لجذتها بصوت
خفيض وكلا هذا محال ، لإنهما ليسا لاجئين مبعدين من بلادهما من
جراء فعل كرهه بغیض ، فإنهما يبلغان من الشباب والطيبة بحيث لا يعرفان
الشر . وعندئذ كنا نتسلى بأن نسردها قصة بعض الجرائم المروعة
التي نعرضها إلى أنفسنا . وكان التناقض بين جبيننا المشرقين . وعيوننا
الصفاءية ، وشفاهنا الباسمة . وقلوبنا المكشوفين . وبين الجرائم الوهمية
التي زعمنا اقترافها — كان يجعلها تنفجر ضاحكة شائها شائن شقية
ويبدد بسرعة كل مجال للتوجس وعدم الثقة .

— ١١ —

وكثيراً ما كانت جراز يلا تسألنا عما نقرأه طول النهار في كتبنا
، وكانت تحسبها كتب صلوات . لأنها لم تكن ترى كتباً إلا في الكنيسة

في يد المؤمنين الذين يعرفون القراءة ويتابعون كلام الرهبان المقدس كانت تظننا في غاية التقوى ، مادمننا ننفق أياما كاملة في التمتة بكلمات غامضة . بيد أنها كانت تتعجب لأننا لم نكن قساوسة أو كهنة في مدرسة إكليريكية بنا بولي أو دير من الأديرة بالجزر . والسكى نزيل خطأها حاولنا مرتين أو ثلاث مرات أن نقرأ فقرات من فوسكولو وبعض مقتطفات جميلة من ناسيت ، مترجمين إياها إلى لغة البلد الدارجة .

كننا نحسب أن هذه الفقرات الوطنية الإيطالية المنفى ، وهذه المآسى الكبرى لروما الإمبراطورية سيكون لها وقع قوى في نفس مستمعينا السذج ، لأن الشعب مفعور على الوطنية في غريزته ، والبطولة في عاطفته ، والفاجعة في فظرتة . فما يماق بذاكرتة هو على الأخص الانهيارات الكبيرة والميتات الجميلة . لكن سرعان ملاحظنا أن هذه الأقوال الرنانة وهذه المشاهد التي سيطرت على نفسينا لم يكن لها على هذه النفوس البسيطة أدنى أثر . إن عاطفة الحرية السياسية ، هذا المطمح لعلية القوم من أولى الفراغ ، لا ينزل إلى هذا الحد بين العامة .

لم يكن الصيادون الفقراء أولئك يدركون لماساذا قنط أورتيس وانتحر ، مادام كان في وسعه أن يستمتع بملذات الحياة الحقيقية كافة : التنزه دون مشغلة ، رؤية الشمس . حب الطبيعة . والدعاء لله على ضفاف لا برنتا الخضراء الخصبة . كانوا يقولون « أى مدعاة لأن يتألم المرء هكذا ويتعذب في سبيل أفسكار لا تنفذ حتى شغاف القاب : ماذا يهمه إن كان النمسيون أم الفرنسيون هم الذين يتحكمون ميلانو ؟ إنه ليجنون أن يتسكبد مثل هذا الحزن والكمد من أجل مثل هذه الأمور . . . وما عادوا يسمعون .

أما تاسيت فسكانوا أقل فهماً له . فالإمبراطورية أو الجمهورية .
وأولئك الناس الذين يتقاتلون ، بعضهم في سبيل السيطرة والبعض
الآخر لكيلا يعيش في إسمار العبودية . وهذه الجرائم في سبيل العرش
وهذه الفضائل في سبيل المجد . وهذه الميئات في سبيل الخلف ، كل ذلك لم
يكن يؤثر فيهم مثقال ذرة . كان عندهم أشبه شيء بالرعد على مبعدة
منهم فوق الجبل ، فهم يدعونه يقع دون أن ينشغلوا به لأنه لا يقع إلا
على شوامخ الذرى ، فلا يهز شراع الصياد ولا دار الفلاح .

إن تاسيت ليس مشهوراً إلا لدى رجال السياسة والفلاسفة . فهو
أفلاطون التاريخ . وإن حساسيته لأرفع من أن يسيغها العامة .
ولكى يدركه الإنسان ينبغي أن يكون قد عاش في عجمية الميدان العام
أو في دسائس القصور الغامضة . احذف الحرية . والطموح . والمجد
من هذه المشاهد ، فماذا يبقى منها ؟ أولئك هم الممثلون الثلاثة
العظام في مآسيه .

وعلى ذلك حاولنا أن نقرأ لهم . ذات مساء . بول وفرجينى .
كنت أنا الذى أترجم هذا الكتاب وأنا أقرؤه . لأنى كنت قد
اعتدت قراءته حتى حفظته ، إن جاز القول : عن ظهر قلب . ولما كنت
قد ألقت اللغة الإيطالية نظراً لطول إقامتى فى إيطاليا . فإن التعابير
كانت تسعفى دون ما كلفة بل كانت تجرى على شففى بجرى لغة الأم .
وإن هو إلا أن بدأت هذه القراءة حتى تغيرت وجوه المستمعين وكساها

تعبير من الانتباه والخشوع ، وهي دلالة مؤكدة على تأثر الأئمة .
 كنا قد وقفنا على اللحن الذي يحتاج بالإجماع في نفس كل الناس ، في
 كل الأزمان ، وفي كل الطبقات . اللحن المحسوس . اللحن الشامل .
 اللحن الذي يتضمن في لحنه واحدة حقيقة الفن السرمدية : الله ، الطبيعة ،
 والحب .

- ١٣ -

ما إن قرأت بضع صفحات حتى تغير وضع المجوزين . والفتاة ،
 والأطفال . نسي الصياد ، وقد انسكأ بمرفقه على ركبته وأرهف أذنه
 نحو ، نسي أن يشق دخان غليونه . واعتمدت الجدة العجوز ذقنها بيديها
 وقد جلست قبالي ، في وضع فقيرات النساء اللواتي ينصتن لكلام الله
 جالسات الشرفاء على بلاط المعابد . وهبط يبسو من فوق سور الشرفة
 حيث كان يقعد . ووضع قيثارته في سكون على الأرض . وجعل راحة
 يده على مقبض القيثارة خشية أن تدفع الرياح الأوتار إلى الرنين . أما
 جيراننا . التي كانت تظل عادة مبهتة قليلا . فقد أنشأت تقترب مني
 هلى نحو غير محسوس كأنها مفتونة بقوة جاذبية خفية في ثنايا الكتاب .

كانت مستندة على سور الشرفة الذي كنت متمددا تحته ، فطفت
 تزداد دنوا مني ، متكئة على يدها اليسرى التي تدلت على الأرض في
 وضع المصارع المجروح . وكأنها تنظر بعينها النجلارين المفتوحين
 حينما إلى الكتاب . وحينما إلى شفقي اللتين تسيل منهما القصة ، وحينما
 إلى ما بين شفقي والكتاب من فراع ، كأنها تبحث بنظرها عن الروح

الحظي الذي يترجمه لى . وكنت أسمع أنفاسها المضطربة تتقطع أو تلمث حسب اختلاجات المأساة . شأنها شأن أنفاس مبهورة لا يرى* يصعد جبلا فيستريح ليتنفس من آن لآن . وقبل أن أباغ منتصف القصة كانت الفتاة المسكينة قد نسيت تحفظها — الفظ بعض الشيء — حياى . كنت أحس حرارة أنفاسها تلفح يدى . وكان شعرها يتموج فوق جبينى . وانحدرت من وجنتها بضغ عبرات سخينة قبلت صفحات الكتاب على مقربة من أصابعى .

— ١٤ —

فما عدا صوتى البطيء الرتيب ، الذى كان يترجم لأسرة الصيادين هذه شعر القلب هذا ترجمة حرفية ، لم تكن نسمع أى صوت سوى اللطأت الصباء البعيدة التى يكيلها البحر للشاطئ* هنالك تحت أقدامنا . وكان هذا الصوت نفسه متسقاً مع المطالعة . كان بمثابة خاتمة القصة المتوقعة ، التى تدمدم فى الجوسلفا فى بدايتها وفى سياقها وكلما تسكشفت القصة بدت تطلب مستمعينا البسطاء . وإذا صادف أن ترددت فى العثور على التعبير الصحيح لترجمة كلمة فرنسية كانت جرازىلا تقرب المصباح — الذى عمدت منذ بعض الوقت إلى حمايته من الريح بمشورها — كانت تقربه من الصفحات حتى كادت فى غمرة قلقها أن تحرق الكتاب ، وكأنها قد حسبت أن ضوء اللهب سيجهل المعانى الذهنية تنبثق أمام عيني انبثاقاً ، والألفاظ تتدفق على شفتى اندفاقاً . وكنت أدفع المصباح بيدى مبتسماً دون أن أحول نظرى عن الصفحة ، فأشعر بأصابعى ساخنة بهراتها أيما سخونة .

عندما بلغت اللحظة التي دعت فيها فرجينى عمها إلى فرنسا، فأحسّت فرجينى ، إن جاز القول ، بكيانها ينشطر إلى نصفين : وجهدت أن تعزى بول فى ظل أشجار الموز . محدثة إياه عن عودتها ، ومشيرة له إلى البحر الذى سوف يحملها ، عمدت إلى طى الكتاب . وأرجأت القراءة إلى اليوم التالى .

كان هذا بمثابة صدمة قلبية لأولئك القوم البؤساء . نجشت جرازىلا أمامى ، ثم أمام صديقى ، ضارعة إلينا أن نتم القصة ، لكن دون جدوى . فقد كنّا نروم أن نطيل الاهتمام بالقياس إليها وفتنة التجربة بالقياس إلينا . وعندئذ عمدت إلى انتزاع الكتاب من يحدى . وفتحته . كأنها تستطيع بقوة الإرادة أن تدرك معانى حروفه . وأنشأت تحدّثه وتقبله . ثم أعادته فوق ركبتي باحترام ضامة يديها وناظرة إلى فى توسل وضراعة :

وكان يحياها الوضاء البسام فى السكينة ، وإن شابهة مسحة من الجلد والصرامة ، قد اتخذت بغنة فى غمرة العاطفة الجياشة والحنو المؤثر الرقيق لهذه القصة ، مسحة من حيوية المأساة ، وبلبلتها وتأثيرها الفاجع . كنت تخال أن ثورة مباغثة قد حوالت هذا المرمر الجميل إلى لحم ودموع لقد أحسست الفتاة أن روحها الخاملة حتى الآن تتكشف لها فى روح فرجينى . وبدأت كأنها فضجت ست سنوات فى نصف الساعة هذا . إن صبغات العاطفة العاصفة لونت جبينها ومقلتها اللازوردية ووجنتيها

يلون المرمر . كما لو أن مياهها هادئة آمنة حلت فيها على حين غرة الشمس والرياح والظلمة تغترك لأول مرة . لم يكن في مقدورنا أن نسام تأملها في هذا الوضع ، هي التي لم تكن توحى لنا حتى الآن إلا المرح والمزاح ، بدأت توحى لنا التوقير والاحترام . لكن عينا تضرعت إلينا أن نكمل ، فإننا لم نشأ أن نستنفد سلطاننا في دفعة واحدة ، وكانت تلذذنا بإسالة دموعها الجميلة أبلغ من أن تحفف منبعا في يوم واحد ، فانسحبت متجهمة ثم أطفأت المصباح وهي كظيم .

- ١٦ -

وفي الصباح التالي عندما رأيتها ثانية تحت الخنازل ، وأردت أن أبادلها الحديث أشاحت عني شأنها شأن من يخفي دموعه ورفضت أن تعيب . وكان يرى الرائي من عينيها اللتين تحفهما هالة خفيفة سوداء ومن شحوب وجنتيها السكبي ومن انخفاض زاوية فمها انخفاضاً خفيفاً . فأننا -- كما يرى أنها لم يغمض لها جفن وأن قلبها كان ملتاعاً بأشجان سهرة الأمس الخيالية . فياله من سلطان فذ خارق لكتاب يؤثر في فؤاد فتاة أمية وأسرة جاهلة بكل قوة حقيقة واقعية ، وتبلغ مطالعته مبلغ الحدث في حياة القلب !

ذلك أنه مثلما كنت أترجم الشعر كان الشعر يترجم الطبيعة وأن تلك الحوادث البالغة البساطة : مهد هذين الطفلين أمام أمين بائسين ، وغرامياتهما البريئة وفرقتهما القاسية ، وهذه العودة التي خافها الردي ، وهذا الفرق وذاكما القبران اللذان لا يضمان إلا قلبا

واحداً في قىء أشجار الموز ، كل هذه أمور يحسها السكافة ويفهمونها ابتداء من القصر المنيف إلى كوخ الصياد . إن الشعراء يبحثون عن العبقرية في أبعد الأبعاد في حين أنها تسكن في الفؤاد وإن بضعة أنغام بسيطة تعزف اتفاقاً وفي خشوع على هذه الآلة التي نسفها الله تسكني لسكى تبكى عصراً برمتيه ، والسكى تصبح شائعة شيوع الحب جذابة جاذبية العاطفة . إن الجليل يضجر والجميل يخدع فما في الفن معصوم إلا المؤثر . فمن يعرف كيف يثير الحنن لا يخفى عليه أمر . وإن دمة واحدة فيها من العبقرية مالا يوجد في المتاحف والمسابك كافة في الكون قاطبة .

مثل الإنسان كمثل شجرة نهزها لتسقط ثمارها : فلا يمكنك أن تمن الإنسان دون أن تسقط منه الدموع .

- ١٧ -

كان المنزل طول النهار حزيناً كأن كارثة أليمة قد ألمت بالأسرة المتواضعة . فجعلنا نجتمع لتناول الوجبات دون أن نتبادل أطراف الحديث . ونفترق . ونلتقي دون ابتسام . وكان يرى الرائي أن جرازىلا تؤدي مشاغلها في الحديقة أوفى الشرفة بهمة قصساء . وكثيراً ما كانت تتطلع لترى هل أوت الشمس إلى خدرها . وكان جلياً أنها في ذلك اليوم لم تسكن تنتظر غير المساء .

وعندما أتى المساء . واتخذنا أما كنسنا المعتادة فوق السطح ، فتحمت الكتاب وأتممت القراءة وسط النسيم والانتحاب . الأب ، الأم ،

الأطفال ، صديقي ، وأنا ذاتي . كلنا اشتركنا في هذا الانفعال العام . كانت نبرة صوتي الحزينة الخطيرة تتمشى ، دون أن أدري ، مع حزن المغامرات وخطورة الألفاظ . وكانت الألفاظ تبدو في نهاية القصة وكأنها تأتي من بعيد وتسقط في النفس من حلق بصوت أجش . صوت صدر أجوف لم يعد يخفق فيه القلب ، ولم يعد يعنيه من أمور الأرض إلا ما يتصل بالحزن ، والدين ، والذكرى .

- ١٨ -

كان من المحال أن نفوه بهراء بعد هذه القصة . فلم يبق جرازيلاً ثابتة دون حراك في الوضع الذي كانت فيه وهي تستمع وكأنها ما زالت مستمعة . وران السكون ، تصفيق الأحاسيس النائمة الحقيقية هذا ، فلم يقطعه أحد . فقد احترم كل امرئ لدى الآخرين الأفسار التي أحسها في صميمه . ونفذ زيت القنديل فجعل ينطفئ رويداً رويداً دون أن يمد أحد يده ليؤثره . ونهضت الأسرة والنسجيت خلصة . ومكثنا وحدنا صديقي وأنا . متحيرين في سطوة الحقيقة ، والبساطة ، والعاطفة على كل الناس ، في كل الأزمان ، وفي كل البلدان .

وربما كان ثمة انفعال آخر يشمل أيضاً في أعماق قلوبنا . فإن صورة جرازيل الساحرة وقد تغيرت بفعل الدموع ، وعرفت الألم بفعل الحب ، كانت تسبح في أحلامنا مع طيف فرجينى العلوية . هذان الاسمان . هاتان الطفلتان ، وقد اختلطتا في رؤى غير مستقرة ، جعلتا نفتنان أو تحزنان نومنا المضطرب حتى الصباح . ولم تسكن

مندوحة من أن نهيد قراءة القصة نفسها للفتاة مرتين في مساء ذلك اليوم واليومين التاليين له . ولو قد قرأنا لها مائة مرة على التوالي لما سئمت أن تطلب منا قراءتها ثانية . لأنها الخاصة من خواص خيال الجنوب الخالم العميق ألا ينشد التنوع في الشعر وفي الموسيقى فليس الشعر والموسيقا — إن أمكن التعبير — إلا نسيجاً واحداً يطرز فيه كل امرئ مشاعره الخاصة . ففيهما يتغذى الناس على مر العصور دون أن يشبعوا من نفس القصة ومن نفس اللحن شأنهم شأن العامة سواء بسواء . ماذا في الطبيعة نفسها؟ تلك الموسيقى وكذلك الشعر السامى . ماذا فيها غير بضعة ألفاظ وبضعة أنغام . هى على الدوام متحيزون بها الناس أو تستنخف منهم الأبواب منذ أول نفس يتردد فيهم إلى آخر الأنفاس ؟

— ١٩ —

عند شروق الشمس . في اليوم التاسع . هبت الرياح المعتدلة آخر الأمر . وإن هى إلا ساعات قلائل حتى أصبح البحر بحر صيف . حتى جبال شاطيء نابولى . شأنها شأن المياه والسماء بدت سابحة في ذوب أمعن صفاء وأشد زرقة منه في شهور وغرة القيظ . كالألوان القبة الزرقاء والجبال السماء قد شعرت بملك الرعدة الأولى للشتاء . التي تبلور الهواء وتجعله يأثاق مثل مياه الثلوج المتجمدة . وبدأت أوراق الكرم الضاربة إلى الصفرة وأوراق التين المائلة إلى السمرة تتساقط وتتناثر في الفناء . وكان العنب قد قطف . والتين المجفف في الشمس فوق

السطح قد عبي في سلال غليظة من الأعشاب البحرية جمدتها النساء .
وكان القارب يتلمف لتجربة البحر ، والصيد الشيخ يتمجل إعادة أسرته
إلى المارجلينا . فعمدنا إلى تنظيف المنزل والسقف . وغطينا النبع
بحجر ضخيم لكيلا تلوث الأوراق الجافة وأمواه الشتاء الحوض .
وأفرغنا البئر الصغيرة المحفورة في الصخر من الزيت ووضعناه في جرار
أنزلها الأطفال إلى البحر حاملين إياها على عصي ممدودة بين أذانها .
ولفنا الحشية وأغطية السرير في حزمة مشدودة بالحبال . وأشعلنا
المصباح لآخر مرة تحت الصورة المتروكة فوق المدفأة . وأدبنا آخر
صلاة أمام العذراء كما نوصيها بالمنزل . وبشجرة التين . والكرمة
التي كانت الأسرة تغادرها هكذا بضعة أشهر ثم أوصدنا الباب .
وخأنا المفتاح داخل صدع في الصخر مغطى باللباب . لكي يعرف
الصيد إن عاد خلال الشتاء أين يجده ويستطيع أن يزور بيته . ثم
هبطنا إلى البحر . معاونين الأسرة المعلقة في حمل الزيت والخبز والفمكة
وشحنها في القارب .

الفصل الثالث

- ١ -

كانت عودتنا إلى نابولي في محاذة خليج بايا وسفوح البوزيليه المتعرجة ، بمثابة عيد حقيقى للفتاة وللأطفال ، ولنا ، وبمناخه نصير لاندريا . ودلفنا إلى المارجليتا في الليل الحالك ونحن نغنى . ولم يمل أصدقاء الصياد القدماء وجيرانه الإعجاب بقاربه الجديد . وعاونوه على تفريغ شحنته وجره إلى البر . ولما اكتمل قد نهيناه عن أن يقول لمن كان يدين به ، فإنهم لم يولونا إلا قليل احتفال .

وبعد أن جررنا القارب على الرمال . وحملنا سلال التين ووضعناها فوق قبو أندريا عن كسب من مدخل الغرف الثلاث الواطئة التي تسكنها الأم العجوز . والأولاد الصغار ، وجرازيلا ، انسحبنا دون أن يرانا أحد ، واخترقنا ، وفي القاب غصه ، هجيج شوارع نابولي المسكظة ، وعدنا أدراجنا إلى مسكننا .

- ٢ -

وبعد بضعة أيام من الاستجمام في نابولي . عولنا على معاودة نفس

الحياة مع الصياد كلما سمحت لنا حالة البحر . وكان من شأن
تعودنا منذ ثلاثة أشهر على بساطة ثيابنا وعري القارب أن بدت لنا
ثياب المدن وسرير غرفتنا وأثاثها ترفاً ممضاً يورث الملل . وكان يراودنا
الآمل ألا نستعملها إلا أياماً قلائل . بيد أننا عندما ذهبنا في الصباح
التالي لنبحث في دار البريد عن رسائلنا المتأخرة ، وجد صديقي خطاباً
من أمه ، كانت تستدعي ابنها فوراً إلى فرنسا لحضور قران شقيقته .
وكان على خطيبها أن يسبقه إلى روما . وطبقاً للتواريخ كان لابد أنه
قد بلغها . ولم يكن ثمة مجال للتسويف : فلا مناص من الرحيل .

وكان ينبغي أن أرافقه . ولكنني لست أدري أى فئمة في العزلة
والمغامرة قد استيقنتني . لعل حياة البحار ، وكوخ الصياد ، وصورة
جرازيل كان لها بعض الشأن في ذلك . لكن على نحو غامض . إلا أن
نشوة الحرية . وزهوى لاعتمادى على نفسه وحدى على بعد ثلاثمائة
محلة من بلدى . والشغف بالغموض وبالمجهول . والأمانى الانثوية
لأحلام الشباب . كان لها في ذلك شأن أكبر .

افترقنا في تحنان رجال . ووعدني أن يعود فيلحقني فورما يؤدي
واجباته كابت وأخ . وأقرضني خمسين ديناراً ليسد ما خلفته هذه الأشهر
الطاسمة من فراخ في كيس نقودي ، ثم رحل .

— ٣ —

هذا الرحيل وغياب هذا الصديق الذي كان شأنه معي شأن أخ أكبر
مع أخ طفل تقريباً ، تركني في عزلة كانت كل ساعة تزيدها عمقاً

وكننت أحس أنى أغوص فيها كأنى أغوص فى هوة . فكل أفكارى ،
كل هواطى ، كل ألفاظى التى كانت فيما مضى تدبخر إذ أتبادلها معه ،
رسبت فى قاع نفسى ، حيث فسدت ، واكتأبت ، وجثمت على قلبى
كوقر لا قبل لى عنى أن أزيحه . هذه الجلبة التى لا شىء فيها يعينى ،
هذه الجماهير التى لا يعرف أحد منها اسمى ، هذه الفرقة التى لا نظرة
فيها تجاهبنى ، حياة الفندق هذه حيث يحتك المرء بلا انقطاع بقوم
بجهولين ، وحيث يختلف إلى مائدة صماء بجوار أناس جدد دائماً وغير
مباين أبداً ، هذه الكتب التى قرأناها مائة مرة ، والتى تقول لك
حروفها الثابتة دائماً نفس الكلمات فى نفس الجلبة وفى نفس المكان
كل ذلك الذى بدا لى عذباً أيما عذوبة فى روما وفى نابولى ، قبل رحلتنا
وحياتنا العاطلة المتجولة أثناء الصيف . جعل يبدو لى الآن بمثابة موت
بطى . كنت أغرق قلبى كداً .

جعلت بضعة أيام أجز هذا الحزن من شارع إلى شارع . ومن
مسرح إلى مسرح . ومن مطالعة إلى مطالعة . دون أن أتمكن من زعزعتة
ثم انتهى الأمر بأن قهرنى ، ومرضت بما يسمى الحنين إلى الوطن .
كان رأسى مثقلاً . وساقى لا تقويان على حملى ، وكننت شاحبا
مضنى . وأمسكت عن الطعام . وكان السكون يحزننى ، والضجيج
يؤلمنى ، وأتفقت الليالى مؤرقا مسهداً . والأيام على السرير ممدداً ، دون
أن تواتبنى الرغبة ولا القوة على النهوض . وكان الشيخ قريب أسمى ،
وهو الوحيد الذى يمكن أن يهتم بأمرى ، قد ذهب لإتفاق بضعة أشهر
فى « أبروز » على بعد ثلاثين مرحلة من نابولى حيث اعتزم إنشاء بعض
المصانع . فاستدعيت ، طيبيا فأقبل ولخصنى وجس نبضى ، وقال لى :

إني لست أشكو أى داء . والحق إنى كنت أشكو داء لا يعرف له طبعه .
دواء ، داء يتصل بالنفس والخيال . ومضى لسبيله ولم أراه بعد ذلك .

— ٤ —

وفى اليوم التالى شعرت بأنى أبلغ من سوء الحال بحيث جعلت أبحث
فى ذاكرتى عن يمكن أن أنتظر منه بعض المعونة والشفقة لو حدث
أنى لم أبل من مرضى . وكان من الطبيعى أن تراود ذهنى صورة أسرة
صياد المرجلينا المقلّة ، التى كنت لا أزال أعيش بينها بالذكرى .
فأوفدت صديقا كان يخدمنى ليجتبع عن أندريا ، وينبئه أن أصغر
الشباب المغتر بين منا يشكو علة ويطلب أن يراه .

وعندما بلغ الصبي رسالته كان أندريا فى عرض البحر مع بيلينيو .
وكانت الجدة مشغولة ببيع السمك على رحيف شياجا ، وكانت
جرازيلا وحدها فى المنزل مع أخويها الصغيرين . فلم تسكّد تستغرق
من الوقت إلا ما يكفى لى تعهد بهما إلى إحدى جاراتها ، وترتدى
أحدث ثيابها من طراز بروسيدا ، ثم تبعته الصبي الذى دلها على الشارع
والدير القديم ، وتقدمها على السلم .

سمعت نقرأ خفيفا على باب غرفتى . وإذا الباب ينفتح كأنما قد
دفعته يد خفية : ورأيت جرازيلا . وما إن رأتنى حتى أطلقت صيحة
لشفاق وخطت بضعة خطوات مرتبة نحو سريرى ، ثم ملكت نفسها
فأحجمت وتوقفت وقد انعدت يداها وتدلنا على مئزرها ، ومال رأسها
على كتفها لشفاقا وتحنانا وحدثت نفسها فى صوت خفيض : « ياله من
شاحب ، وكيف تأنى لآيام قلائل أن تغير وجهه إلى هذا الحد ١٢ »

ثم أردفت وهى تلتفت وتبحث بعينها عن رفيق فى الغرفة . وأين الآخر ؟ . فقلت لها : لقد رحل ، وإنى وحيد ولا يعرفنى فى نابولى . أحد . . فقلت : رحل ؟ وتركك هكذا وحيداً ومريضاً ؟ ما كان يجبك إذن آه ! لو قد كنت مكانه لما رحلت ، مع أنى است شقيقك ولم تربطنى بك معرفة إلا منذ يوم العاصفة .

— ٥ —

شرحت لها أنى لم أكن مريضاً حينما غادرتنى صديقى . فاستطردت فى حدة وفى لهجة تأنيب يمتزج فيها الحنو والهدوء : لكن كيف ؟ ألم يخطر ببالك أن لك أصدقاء آخرين فى المارجالينا ؟ . ثم أضافت فى حزن وهى تنظر إلى أكامها وذيل ثوبها : آه . إنى أرى !

ذلك أننا قوم فقراء ، ولعلنا كننا نثير خجلك لو ولجنا هذا البيت الجليل . . ثم استأنفت وهى تمسح عينيها اللتين لم تكف عن إبقائهما مكدتين فى جبيني وذراعى الواهنتين : على حد سواء . حتى لو اختلفتاه كنا سنجىء دائماً .

فأجبت مبتسمة : اى جرازىلا المسكينة ، وقافى الله شر اليوم الذى أخجل فيه من يحبوننى !

— ٦ —

عمدت إلى الجلوس على مقعد بجوار سريري ، وتسامرنا قليلاً . وكانت نبرة صوتها ، وصفاء عينيها ، والاستسلام المطمئنة الهادى البادى فى وضعها ، وسنداجة محياها ، ولهجة نساء الجزر وأولئك اللاهثة والشاكية فى وقت معا ، والى تذكر — كما هو الشأن

فى الشرق — بلهجة الامة الخاضعة حتى فى رجفات العشق نفسها ،
وأخيراً ذكرى أيام الكوخ الجميلة التى أنفقها معها فى وهج الشمس ،
شمس بروسيدا هذه التى خلت أشعتها ما برحت تنساب من جبينها ومن
جسدها ، ومن قدميها إلى غرفتى الحزينة الكسبية : كل ذلك كان
أثناء نظرى وانصافى إليها ينتشلى من ضعفى ومن ألمى لدرجة أنى حسبت
نفسى قد أبليت على حين فجأة من مرضى . كان يخيل إلى أنى حالما
تخرج سأنفض وأمشى . ومع ذلك فقد كان يبلغ من شعورى
بالارتياح فى وجودها ، أنى جعلت أطيل الحديث معها بكل مقدورى
وأنى انتهجت ألف حجة لاستبقائها ، مخافة أن تتعجل الانصراف فينصرف
معهما ما شئت به من ارتياح .

وقامت على خدمتى شطراً من النهار دون وجل ، ولا تحفظ متكلف
هــ لا احتشام زائف ، خدمة الأخت لأخيها فلا تفسكر فى أنه رجل .
وراحت تشتري لى برتقالاً . وكانت تقضم القشرة بشناياها الجميلة
لتزعها ولتسكب العصير فى قدحى عاصرة إياه بأناملها . وانتزعت
من جيدها أيقونة فضية صغيرة كانت تتدلى فى شريط أسود وتختفى
فى صدرها . وعلقتها بدبوس فى ساتر سريرى الأبيض . وأنشأت
تؤكد لى أنى سأبرأ عاجلاً بفضل الصورة المقدسة . ثم بدأ النهار
يولى فأنصرفت بعد أن عادت من الباب إلى سريرى عشرين مرة
لتستفسر عما يمكن أن أرغبه ثانية . ولتوصينى بالحاح أن أدعو الصورة
بكل تقوى قبل أن أنام .

سواء ببركة الصورة والدعاء الذى أدته لها جرازىلا بلا شك ، أو للتأثير المطمئن لرؤيا الحنان والاهتمام التى طالعتنى فى ملاحظها ، أو لما هبأه لى وجودها وحديثها من تأهية فاتمة لطفت نغمه كل كيانى المريض وسكنته ، فإنها ما إن خرجت حتى أخذت سنة من النوم الهادى العميق .

وفى الصباح التالى ، حينما استيقظت ورأيت قشر البرتقال المنثور على أرضية غرفتى ، ومقعد جرازىلا لا يزال ملفوتا صوب سريرى كما تركته وكما لو كانت ستعاود الجلوس عليه ، والأيقونة الصغيرة المدلاة على سائرى بالشريط الحرير الأسود ، وكل آثار وجود المرأة وعنايتها هذه التى كانت تعوزنى منذ أمد بعيد ، بدالى أول الأمر قبل أن أفيق تماماً أن أمى أو إحدى أخواتى قد ولجت غرفتى فى المساء . وإن هى إلا أن فتحت عيني جيداً واستعدت أفسكارى واحداً لآخر حتى قرأت لى صورة جرازىلا كما رأيتها أمس .

وكانت الشمس ساطعة ، والراحة قد قوت أعضائى أيمسا قوة ، واعتكافى فى غرفتى يثقل على قلبى ، وحاجتى إلى أن أسمع ثانية نبرة صوت معروف تلح على إلحاحاً بلغ من شأنه أن نهضت من فورى . مع ما كنت عليه من سقام وترنح ، وأكلت بقية البرتقال ، وركبت عربة من الميدان ، واتخذت بالغريزة الطريق إلى الرجلينا .

وعندما شارفت بيت أندريا الصغير الواطى ، صعدت السلم المفضى إلى سطح القبو ، المطلة عليه غرف الأسرة ووجدت فوق السطح جرازىلا ، والصيد الشيخ ، وبيبو ، والطفلين . وكانوا فى تلك اللحظة متأهبين للخروج ، مرتدين أبهى ثيابهم للحضور لعيادتى . وكان كل منهم يحمل فى سلة أو فى منديل أو فى يده هدية من الهدايا التى تخيل أولئك القوم الفقراء أن تكون ألفت هدية للمريض وأنفعها : هذا قنينة من نبيذ إيسكيا الأبيض الذهبى ، وقد استعيض عن الفلين فى سدها بصمام من حصا لبان والعشب المعطر يضمنق القنينة ، وهذه بعض الثين المجفف ، وتلك ثمرة من ثمار البشمالا والأطفال الصغار ثمار برتقال . كانت نفحة من قلب جرازىلا قد صرت فى جميع أعضاء الأسرة .

وذلت عنهم صيحة دهش عندما رأوني ، أزال شاحباً وضعيفاً لسكن واقفاً ومبتسماً أمامهم . أما جرازىلا فلفرط ما استخفها من فرح تركت البرتقال يتدحرج من مشورها على الأرض ، وعدت تحوى حضاربة كفا على كف وصاحت : لقد قلت لك إن الصورة سوف تشفيك إن بائت ليلة واحدة فوق سريرك . فهل خدعتك إذن ؟ . فأردت أن أعيد لها الصورة ، فتناولتها من صدرى حيث وضعتها ساعة خروجى فقالت لى : قبلها أولاً ، فقبلتها وقبلت أيضاً طرف أناملها التى

عديتها لتأخذ منى الصورة . فأضافت وهي تضعها في جيدها وتدسها في صدرها . سوف أعيدها إليك إن مرضت ثانية . إنها تنفع لاثنتين .
وجلسنا على الشرفة في شمس الضحى . وكان الجميع يبدون من المرح كما لو أنهم لقوا أبا أو ابنا يرتد إليهم بعد سفر طويل : إن الزمن الذي لاغنى عنه لتكوين الصداقة الحيمة في الطبقات العليا ، لا لزوم له في الطبقات الدنيا . فالقلوب تفتح بلا احتباس ، ثم تلتحم في الحال لأنه ليس وراء العواطف مصلحة محل اشتباه : ففي ثمانية أيام يتسكون من الآصرة والقرابة الروحية بين أهل الطبيعة ما لا يتسكون في عشر سنين بين أهل المجتمع . كئنا ، هذه الأسرة وأنا ، أقرباء من ذلك الحين .

أدلى كل منا بما أصابه من خير أو شر منذ أن افترقنا . كان البيت الفقير يلاقى أسباب التوفيق . فقد كان القارب مباركا . وكانت الشباك موفقة . ولم يسبق أن ألقى الصيد بهذا المحصول الوفير ، فلم تكشف الجدة لمهمة بيع السمك للناس أمام الباب ، وكان يبيع ، الفخور القوى ، يبادل نوتيا في العشرين من عمره مع أنه لم يتعد الثانية عشرة . أما جرازيل فقد كانت تتعلم مهنة أفضل من مهنة الأسرة المتواضعة فإن أجرها ، المجزى بالقياس إلى عمل فتاة ، والمتنظر أن يزيد بفضل مواهبها ، كان يكفي لكساء أخويها الصغيرين وغذائهما ، ولتسكوين بائنة لنفسها عندما تبلغ سن الزواج وتفسر فيه .

تلك كانت تعجيرات أهلها . كانت تتعلم صناعة المرجان . وكانت تجارة المرجان وصناعته إذ ذاك الثروة الرئيسية في صناعة مدن

إيطاليا الساحلية . وكان أحد أخوال جرازيل ، شقيق الأم التي فقدتها
رئيس عمال في مصنع ، المرجان الرئيسي في نابولي . ولما كان غنيا
بالقياس إلى طبقته ، ومديراً لعدد كبير من العمال من الجنسين ، لا يكفون
لتلبية الطلبات الواردة من أنحاء أوروبا بشأن هذه الحلى ، فقد فكر في ابنة
أخته ، وحضر منذ أيام قلائل ليضمها إلى عاملاته ، وقد جاءها بالمرجان
وبالأدوات ، وعلمها الدروس الأولى لهذا الفن البسيط ، وكانت
العملات الأخريات يشغلن جماعة في المصنع .

ولما كانت جرازيل ترعى الأطفال وحدها نظراً لغياب جدتها
والعياد غيا باقربها مستمراً ، فقد كانت تقوم بحرفتها في المنزل وكان
خالها الذى لا يستطيع أن يتغيب كثيراً ، يوفد إليها منذ بعض الوقت
ابنه الأكبر ، وهو قتي في العشرين من عمره ، سديد الرأى ، متواضع
الطبع ، مستقيم القصد ، ومن خيرة الصنائع ، ولا كنهه ساذج الذهن ،
لبن العظم ، ساءه التسكوت بعض الشيء كان يحب . في المساء ، بعد إغلاق
المصنع ، ليفحص عمل بنت خالته وليصقل استعمالها للعدد ، وليلقنها
أيضاً مبادئ القراءة ، والكتابة ، والحساب . قالت لى الجدة فى صوت
خافت حينما كانت جرازيل تشيح بعينها وعسى أن ينتهى الأمر فى صناعة
الاثنتين ، وأن يصبح المعلم يوماً خادماً لحظيته ، فأبت أن العجوز تراو
ذهنها فكرة زهو وطموح فى شأن حفيدتها . بيد أن جرازيل لم يكن
يساورها شيء من هذا القبيل .

اقتادتني الفتاة باليد إلى غرفتها ، لتتيح لي أن أعجب بأشغال المرجان الدقيقة التي خرطتها وصقلتها . كانت مصفوفة بإحكام فوق قطن في قطع صغيرة من الورق المقوى بجانب قائم السرير . وأرادت أن تصنع واحدة منها أمامي . فقامت بإدارة عجلة المخرطة بطرف قدمي ، قبالتها ، في حين عرضت هي غصن المرجان الأحمر للنشار الدائري الذي قطعه في سرير ، ثم جعلت تدور هذه القطع ، بأن أمسكتها بطرف أصابعها ، وعرضتها للسن .

كان الغبار الوردي يغمر يديها ، وكان يتطاير في بعض الأحيان حتى يحياها فينذر على خديها وشفتيها خضاباً خفيفاً ، فيبدى عينيها أمعن زرقة وأشد سناء . ثم جعلت تمسح نفسها مستضحكة وتلفظ شعرها الفاحم من الغبار ، الذي غمرني بدوري . وقالت « أليست هذه حرفة جميلة لابنة بحر مثلي ؟ لأننا مدينون للبحر بكل شيء : ابتداء من قارب جدى ، إلى الخبز الذي نبلغ به ، إلى تلك القلائد وتلك الأقراط التي سوف أزين بها يوماً ، بعدما أكون قد صقلت وصنعت منها كثيراً لمن يجاوزني غنى ويفقني حسناً . »

كذلك انقضى الصباح في سمر ، وفي جمل ، وفي عمل دون أن تحول بخاطري فمكرة الانصراف . وشاطرت الأسرة وجبة الظهر ، كانت الشمس ، والهواء الطلق وراحة البال وزهد المائدة التي لا تحمل سوى بعض الخبز والسمك المقل والفاكهة المحفوظة في القبو — كانت قد أعادت

لى شهبتي وقوتى . وبعد الظهر عاونت الأب فى رتق خيوط شبكة قديمة منشورة فوق السطح .

كان ما نسمعه من وقع قدم جرازىلا الرتيب وهى تدير المسن ، وحفيف مغزل الجدة ، وصوت الأطفال الذين يلعبون بالبرتقال عند مدخل البيت يصاحب هملنا فى لحن متسق . وكانت جرازىلا تخرج من آن لآن كىما تنفض شعرها فى الشرفة ، وكنا نتبادل نظرة ، أو كلمة ودية ، أو بسمه . وكنت أشعر بسعادة ، لست أدري مصدرها ، تتولانى حتى تلمس شفاف نفسى . كنت أتمنى أن أكون عوداً من أعواد الزند المتأثلة فى سور الحديدية ، أو عظاية من العظايات التى تستدفئ فى الشمس على مقربة منا فوق الشرفة وتسكن صدوع جدار البيت مع هذه الأسرة الفقيرة .

- ١١ -

بيد أن روحى ووجهى كانا يكتئبان ويظلمان كلما أشرف النهار على الإدبار . كان يتولانى الأسى عندما أفكر أن لا مناص من العودة إلى غرفتى بالفندق . وكانت جرازىلا أول من لاحظ ما يعتربنى . فذهبت تلقى بضع كلمات فى مسامح جدتها فى همس خافت .

قالت لى السيدة العجوز كأنها تحدث أحد أبنائها ، لماذا تهادرنا كذلك ؟ ألم نكن معا فى خير حال فى بروسيدا ؟ ألسنا فى نابولى على ما كنا عليه ؟ إنك لنبدو مثل طائر فقد أمه فانطلق يعسس صائحاً حول كل عش يصادفه . تعال معنا واسكن عشنا إن وجدته يليق بسيد رقيق مثلك . ليس فى المنزل سوى ثلاث غرف ، غير أن يبيو ينام فى القارب . وسوف

شكفى غرفة الاطفال جرازىلا على أن يمكنها العمل نهاراً فى الغرفة التى
صنّام فيها أنت . نأخذ غرفتها ، وانتظر هنا عودة صديقك . لأن حال
فتى طيب وحزين مثلك ، وحيد فى شوارع نابولى لما يشق على
النفس كلما ورد على الخاطر .

استخف الفرع الصياد ، وبيجو ، بل الطفلين الصغيرين أيضاً ، وقد
أحبوا الغريب فعلاً - استخفهم الفرع لفكرة السيدة العجوز . فألحوا
بشدة ، كلهم دفعة واحدة ، اسكى أقبل عرضها . ولم تقل جرازىلا شيئاً
ولكنها كانت تنتظر ردى على إلحاح أهلها بجوع بين مندأريه بتشغل
مفتعل . كانت تكل الأرض بقدمها ؛ بحركة عصبية غير إرادية ، لدى
كل سبب تمليه الفطنة تذرعت به لعدم القبول .

وأخيراً شخصت إليها ببصرى . فوجدت أن مقلتها مخضلتان
متألفتان أكثر مما عهدتهما . وأنها تفرك بين أصابعها عوداً من أعواد
الريحان المستنبت فى أصيص على الشرفة وتسحق فروعه سحقاً . وفهمت
هذه البادرة أفضل من الخطب المسنّبة . فقالت ما عرض على من
ممشاركة فى الحياة . فصفت جرازىلا واستخفها الطرب . ووثبت
نافرة دون أن ألتفت ، كأنما أرادت أن تأخذنى بكلمتى ، دون أن
تدع لى فرصة للتراجع .

- ١٢ -

استدعت جرازىلا بيجو . وفى لحظة نقلت هى وشقيقها إلى غرفة
الطفلين سريرها . وأثامها الفقير . ومرآتها الصغيرة المؤطرة بخشب مطلي

والمصباح النحاسى . وصور العذراء المدلاة على الجدار مشبهة بالدبابيس . والمنضدة . والمخرطة الصغيرة التى تصنع بها المرجان . واغترقا من البئر ماء . ورشاه براحة اليد على الأرضية . وكنسا بعناية غبار المرجان من فوق الجدران والبلاط . ووضعوا على دعامة النافذة لصيصين هما أشد الأصص التى وجداهما فوق السطح إيناعا وأذكاهما فواحا بأرج البلسم والخزامى . ولو كان بيبو سيقود خطيبته فى المساء إلى بيت أبيه لما بذلا من العناية فى إعداد غرفة زفافه وجلوها فوق ما بذلا . وكنبت أعاونهما ضاحكا على هذا المهرج .

وعندما أعد كل شيء . اصطحبت بيبو والصيد لا يتياع واجتلاب ما يلزمى من أثاث قليل . فابتعت سريراً من حديد . ومنضدة من الخشب الأبيض . ومقعدين من الخيزران وبجرة نحاسية من المجامر التى يحرق فيها نوى الزيتون فى أمانى الشتاء للاستدفاء . وكانت حقيقى التى أرسلت لإحضارها من غرفتى تحتوى البقية الباقية . وفى المساء نفسه ربت فى غرفتى الجديدة . ولم أستيقظ إلا على شقشقة عصفائر الجنة . المراحة ، التى كانت تلج غرفتى من مصراع مكسور فى النافذة ، وعلى صوت جرازىلا التى كانت تشدو فى الغرفة المجاورة مصاحبة شدوها . بحركة مخرطتها الرتيبة .

— ١٣ —

عمدت إلى فتح النافذة المطلة على حدائق الصيادين والغسالات . الصغيرة المحصورة بين صخور البوزيليب وميدان المارجلينا .

كانت بعض كتل الجرانيت الأسود قد تدرجحت حتى تلك
الحدائق وعلى مقربة من المنزل . وكانت بعض أشجار التين الضخمة
التي نبتت معصرة بين هذه الصخور ، تعتقلها بأذرعها المتعرجة
اليخضاء ، وتغطيها بأوراقها العريضة الثابتة . ولم يكن يرى الرائي
من ناحية المنزل هذه ، في حدائق القوم الفقراء هذه ، سوى بضع آبار
تعلوها عجلة كبيرة ، يديرها حمار ، لرى السكرن والجزر ، بوساطة
قنوات من الشبار ، ونساء يحففن الغسيل على حبال ممددة بين أشجار
الليمون ، وأطفال يلعبون أو يبكون فوق شرفات بضعة بيوت بيضاء
منشورة هنا وهناك بين الحدائق . إن هذا المنظر المحدود ، الشعبي ،
السكثيب ، لضواحي مدينة كبيرة ، بدا لي رائعا إذا قورن بالواجهات
العالية التي تحيط بالشوارع الضيقة ، والجماهير الصاخبة في الأحياء التي
بارحتها من قريب . فقد كنت أنففس هوا طلقا بدلا من تراب ذلك
الجر البشري التي كنت أنففسه وناره ودخانها . وكنت أسمع نقيق
الخمير ، وصياح الديكة ، وحفيف الأوراق ، وأنين البحر المتناوب
بدلا من خبيب العجلات ، وصراخ الناس الحاد ، والرعد المتصل
لتلك الأصوات المزعجة التي لا تتيح في شوارع المدن الكبرى أية راحة
للأذن ولا أية سكونة للذهن .

لم يكن في مقدوري أن أنتزع نفسي من سريري ، حيث كنت
أستمرى متلذذا هذه الشمس ، وهذه الأصوات الريفية ، وتوهم
الطير هذا ، وراحة الفكر هذه التي لا يعكر صفوها معكر ، وحيث
كنت أشاهد عرى الجدران ، وخواء الغرفة ، وغياب الأثاث ، فأجد

لذة في التفكير في أن هذا البيت الفقير كان يحبني على أقل تقدير ، وأنه
ما من طنافس ولا رباش ولا ستائر من حرير تستحق أدنى دأب أو
اهتمام . إن جامد الإحساس ، إذا أوتي ذهب العالم كله ، لا يستطيع أن
يشترى خفقة واحدة من خفقات القلب ، ولا شعاعا واحدا من نظرة
حنون .

كانت هذه الخواطر تهددني في إغفاء في ههددة رقيقة ، وكنت
أحس أني أستعيد الصحة والطمأنينة . ودخل بيبو غرفتي مرارا
أبري هل أحتاج إلى شيء من الأشياء . وأحضر لي فوق سريري بعض
الخبز والعنب فأكلته راميا الفتات والبذر للعصافير . وكان الوقت قبيل
الظلمة . وعندما صحوحت كانت الشمس تتسلل إلى غرفتي بأشعتها
الساطعة وفورها الخريبي الرقيق . واتفقت مع الصياد وزوجه على أن
أدفع كل شهر مبلغا طفيفا لإيجارا لغرفتي ، ومشاركة بنز يسير في نفقات
المنزل . وكان المبلغ زهيدا ومع ذلك وجدته أوائك القوم الطيبون
باهظا . وكان جليا أنهم لا يسمعون إلى ابتزاز مالي بل على النقيض
يشعرون بألم دفين لأن فقرهم المدقع وزهد حياتهم الشديد لا يتيحان
لهم أن يكرموا وفادتي لإكراما كانوا يشبهون به نظرا لو أنه لم يكلفني
شيئا . جعلوا يضيفون رغيفين على الأربعة التي يشترونها للأسرة كل
صباح ، وقليلًا من السمك المسلوق أو المقل في الغذاء ، ومن منتجات
اللبن والفاكهة المخففة في الماء ، ومن الزيت لقمنديل ، ومن الوقود
لأيام البرد القارس . كان هذا كل شيء . وكانت بضعة حبات ، من
النحاس ، عملة أهل نابولي الصغيرة ، تكفي لنفقات الشخصية اليومية .
ما فهمت عمري أفضل عما فهمت أن السعادة لا صلة لها بالترف . وأن

الإنسان يمكنه أن يشتري منها بفلس من نحاس أكثر مما يشتري بكيس
من ذهب إذا عرف كيف يجدها حيث أودعها الله .

- ١٤ -

عشت هكذا في أثناء أشهر الخريف الأخيرة وأشهر الشتاء الأولى .
لأن بهجة أشهر نابولي هذه وصفاءها تجعلها لا تفترق عن سابقاتها .
وما من شيء كان يكدر هدوء حياتنا الريب . ولم يعد الشيخ وحفيده
يغامران بالتوغل في عرض البحر بسبب هياج الرياح المتكرر في هذا
الموسم . فواصلوا الصيد بطول الشاطئ ، وكان معكمم الذي تبعه الأم
في « البحرية » يكفى حياتهم الزهيدة كل السكفاية .

وكانت جرازيللا تتقدم في إتقان حرفتها ، وقد زكا عودها وزها
حسنها في الحياة الوادعة المستقرة التي عاشتها منذ اشتغلت بصناعة المرجان
وكان أجرها الذي يحضره لها حالها يوم الأحد لا يسمح لها بأن تهيم
لأخويها الصغيرين عيشة أنظف وكسوة أفضل وبأن تلحقهما بالمدرسة
فحسب ، بل أن تهيم لجلدتها ولنفسها قطع ثياب أغلى ثمنها وأوفر
أناقة بما ترتديه نساء الجزيرة : من عصابات حريرية حمراء تتدلى من
خلف الرأس على الكتفين في مثلث طويل ، وأحذية دون عقب ، لا
تغطي سوى أصابع القدم ، موشاة ببرق من فضة ، وسترات حريرية
سبراء تشققها خطوط سوداء وخضراء : تلك السترات المزينة بجداول
تموج مفتوحة على الفخذين فتبدي من أمام رشاقة القوام وأعطاف
الجليد المزين بالقلائد إلى أقراط كبيرة منقوشة نقشاً بك فيها خيوط الذهب
بمسحوق اللؤلؤ إن أفقر نساء الجزر اليونانية يتجلمان بتلك الحلى وتلك الزينة
وما من مأساة ترغمن على الإفلاع عنها . ففي الأقاليم التي حب الجبال فيها أعنف

منه نمت سماننا ، والتي الحياة فيها هي الحب ، ليست الحل ترفا في نظري
للرأة : لأنها عندها الضرورة الأولى وربما الوحيدة .

- ١٥ -

عندما كانت جرازيل تخرج من غرفتها إلى الشرفة ، يوم الأحد
أو أيام الأعياد ، لابسة هذه الثياب ، متحلية ببعض أزهار الرمان
أو الورود الحمراء في مفرق شعرها الفاحم ، عندما كانت تدبخر ذهابا
وجيئة أمام نافذتي مثل طاووس يتلألأ في وهج الشمس فوق السطح ،
مصغية إلى دوى الاجراس في الكنيسة المجاورة ، عندما كانت تجر مثاقلة
متخطرة قدميها الخبيستين في نعالها المنقوشة بالمينا ، وهي تحدجها
بنظرها ، ثم ترفع رأسها بتأود الجيد المعهود كيما يتماوج منديلها الحريري
وشعرها الأبيض على كتفيها ، عندما كانت تستشف أني أتملي فيها ،
كانت تنضرج بمسحة من حمرة كأنها خجل خفراء أن تكون على هذا
المبلغ من الجمال ، وفي بعض الأحيان كانت نضرة جمالها الجديدة تؤثر
في نفسي حتى ليخيل إلى أني أراها لأول مرة ، وأن أفتي المعتادة بها
تتحول إلى شيء من الاستحياء والافتتان .

بيد أنها ما كانت تسعى إلى أن تفتن أحدا من الناس ، وكان حبها
الغريزي للزينة مبرا من كل ذهو ومن كل دلال ، حتى لأنها كانت عقب
الحفلات الدينية مباشرة تبادر إلى التجرد من زينة الثينة ، وإلى ارتداء
السترة البسيطة المصنوعة من الصوف الخشن الأخضر ، وثوبها الهندي
المخطط بالأحمر والأسود ، وإلى لبس النعال ذات العقب من الخشب

الأيمن ، التي كانت تحجب طول النهار فوق الشرفة خبيب ، القباقيب ،
الزنانة التي تلبسها إمام الشرق .

وحينما كانت أترابها لا يحضرن لأخذها إلى الكنيسة أو لا يرافقها
ابن خالها ، كنت أنا الذي كثيرا ما أقتادها وأنظرها جالسا على سلم
البهو الخارجي . ولدى خروجها كنت أشعر بشيء من الزهو في ذاتي
كما لو كانت شقيقتي أو خطيبتي ، إذ أسمع همسات الإعجاب التي يثيرها
حياتها الصبيح الفاتن بين أترابها وبين شباب نوتية وصيف المارجليينا .
لأنها ما كانت تسمع شيئا ، ولا ترى من الجمهور أحداً غيري ،
فكانت تبسم لي من أعلى الدرج ، وترسم علامة الصليب لآخر مرة
بأناملها المخضلة بالماء المبارك ، ثم تهبط الدرك الذي أنتظرها عند
نهايته مستحيية ، غاضة طرفها .

كذلك كنت أقتادها أيام العيد صباحا ومساء إلى الكنيسة ،
التسليية الوحيدة والنقية التي عرفتها وأحببتها . وكنت أهي في تلك الأيام
بأن تكون ثيابي أقرب ما يمكن إلى ثياب نوتية الجزيرة الفتيان ، حتى
لا يدهش وجودي أحسد ، وحتى يحسبني الناس أختا للفتاة التي
أصحبها أقرينا .

وفي الأيام الأخرى لم تكن تبرح المنزل . أما أنا فقد عدت رويدا
رويدا إلى حياة البحث والدراسة ، وإلى عاداتي الانفرادية التي لا يلهي
عنها إلا صداقة جرازيل العذبة ، وتبقى أسرتها إياي . أنشأت أطالع
مؤرخي اللغات كافة وشمرامها . وكنت أكتب في بعض الأحيان ،
كنت أحاول بالإيطالية تارة وبالفرنسية تارة أخرى أن أفضض

بالنثر أو بالشعر با كورة فورات النفس هذه ، التي تبدو كأنما تجتجج
على القلب إلى أن يخف الكلام وطأها حين يعبر عنها .

يبدو أن الكلام هو النصيب الوحيد المقدر للإنسان وأن الإنسان
خلق لكي يتخض عن الأفكار كما تتخض الشجرة عن الثمار ، وإنه
ليعاني الآلام إلى أن يلفظ إلى خارجه ما يحذبه في أحشائه . وإن
كلامه المكتوب هو بمثابة مرآة لازمة له لكي يتعرف نفسه ويستيقن
من وجوده . وطالما أنه لا يرى نفسه في مؤلفاته فهو لا يحس أنه
مستكمل أسباب الحياة . فالذهن له بلوغه ، شأنه شأن الجسد .

كنت في تلك السن التي تحتاج فيها النفس إلى أن تتقات وأن تتكاثر
بالكلام . لكن . كما هو الشأن دائماً . تولدت في نفس الغزيرة قبل
القوة . فكنت لا أكاد أكتب حتى أمتعض من تأليفي وأطرحه
باشمئزاز وتقزز . كم حملت وياح بحر نابولي وكما ابتلعت أمواجه
في الصباح . إربا من عواطفي وخواطري في الليل ، مزقتها في النهار .
وطارت بعيداً عن غير ما سوف عليها .

- ١٦ -

وفي بعض الأحيان كانت جرازيللا تراني قد أطلت الاعتكاف .
والزمت السكن أكثر من المعتاد ، فتدخل غرقى خلسة لتتزعنى من
غمار مطالعاتي العنيدة أو من مشاغلي . كانت تتقدم دون ديب ورام
مقعدي ، وتشب على أطراف قدميها لترى من فوق كتفي ما أقرأه
أو ما أكتبه ، وإن لم تفهمه ، ثم تسلبني الكتاب وتتزع القلم من

أصابني بحركة مباغطة وتولى هاربة . فاتبعتها إلى الشرفة ، ويتولاني الغيظ . فتستضحك . فأصفيح عنها ، وألكنها تعنفني بجد وحزم مثله .
تفعل الأم .

كانت همهم بفارغ صبر يختلط فيه الجذ بالهزل ، ماذا يقول اليوم .
ذاك الكتاب لعينيك طيلة هذا الوقت ؟ ألا تنتهي أبدا تلك السطور السوداء المتراسة على هذا الورق القديم السكريه من التحدث إليك ؟ أأست تعرف من الأقاصيص ما يكفي لتحكيها لنا أيام الأحد وطيلة أمامي السنة مثل تلك التي طالما أبكيتني في بروسيدا ؟ ولمن تدبج آناء الليل تلك الرسائل المسهبة التي ترميها في الصباح إلى رياح البحر ؟ ألا ترى أنك تضر نفسك ضرراً بالغاً وتبدو شاحباً وشاردا لما تكتب أو تقرأ طويلاً ؟ أليس أعذب عندك أن تحادثني ، أنا التي أنظر إليك من أن تحادث أياً ما بطولها هذه الكلمات وهذه الألفاظ التي لا تصغي إليك ؟ رباه ! ليتني كان لي من العقل ما لهذه الأوراق ! إذن لحادثتك طول النهار ، ولأجبتك إلى كل ما تسألني إياه ، وإذن لما احتجت أن تبلي عينيك كذلك وأن تحرق زيت قنديلك . ، وحينئذ كانت نخبي عنى كتابي وأقلامي ، وتحضري صدري وقبعتي ، وترغمني على الخروج لتسليتي .

وكنت أنقاد لها متأففا متبرما لكن مدنفاً متبها .

الفصل الرابع

- ١ -

كنت أنطلق في جولات مستطيلة في ربوع الريف مخترقا المدينة
مخرجاً على الأرصفة ، إلا أن هذه الرحلات الانفرادية لم تكن حزينة
كما كان شأنها في الأيام الأولى لعودتي إلى نابولي . كنت أستمتع منفرداً
ولسكني كنت أستمتع استمتاعاً رائعاً بمشاهد المدينة والشاطئ
والسما والامواه . ولم يعد شعوري العابر بعزلاتي يثقل على ويضني ،
كان يجعلني أنطوى على نفسي مستجمعاً قوات قلبي وتفكيري . كنت
أعرف أن عيونا وخواطير حبيبة تنهني في هذه الجموع الغفيرة ، أو في
هذه الفلوات القفراء ، وأن قلوباً عامرة بحبي تنتظر أوبى .

لم يعد شأني شأن الطائر الذي يتصايح حول وكنات غريبة ، وفقاً
لتعبير السيدة العجوز . بل شأن الطائر الذي يحاول أن يطير مبعداً عن
الفن الذي يحمله لئلا يعرف طريق العودة إليه . كان كل كفى بصديقي
الغائب قد انصب على جراذيل . بل كان في هذه العاطفة مسحة من
الحنف ، والحنو لا تتوافر في العاطفة التي كانت تربطني به .
كان يخيّل إلى أنى مدين بهذه إلى العادة وإلى الظروف . أما تلك فقد
تولدت من صميم ذاتي وظفرت بها باختياري .

لم يكن يساورنى منها اضطراب ، ولا غيرة ، ولا انشغال عنيف ؛ بل كانت راحة قلب عذبة وليست حمى . ولم يحمل بخاطرى أن أحب على نحو آخر ولا أن أكون محبوباً أكثر . ولم أكن أعرف ما إذا كانت رفيعة أو صديقة أو شقيقة لى أو غير ذلك ، وإنما كنت أعرف فقط أنى سعيد معها وأنها سعيدة معى .

لم أكن أرغب فى مزيد ، فى شئ آخر . لم أكن فى السن التى يحمل المرء فيها لنفسه الشعور الذى يشعر به كما يحد لسعادته وصفاً باطلا . كان حسبى أن أكون هادئاً ، محبباً وسعيداً ، دون أن أدري مصدر ذلك أو علته .

كانت الحياة المشتركة ، والتفكير المشترك توثقان كل يوم عرى الالفة البريئة العذبة التى تربطنا ، هى ، طاهرة فى استسلامها بقدر ما أنا هادئ فى خلو بالى .

- ٢ -

منذ الأشهر الثلاثة التى غدوت فيها فرداً من أفراد الأسرة ، وسأ كنتها تحت سقف واحد ، وشغلت إن صح القول شطراً من تفكيرها ، كانت جرازىلا قد تعودت أن تعدنى متما اقلبها حتى إنها ربما لم تدرك مدى الحيز الذى أشغله منه . كانت معى لا يساورها شئ من هذه المخاوف أو هذه التحفظات التى تعترض العلاقات بين فتى وفتاة ، والتى كثيرأما تولد الحب من ذات التحولات التى نتخذها لنحتمى منه . لم يكن

مخالفتها شك . وأنا ذاتي كنت لا أكاد أشك في أن مفاتيح الطفلية الخاصة ، التي تعرضت الآن لمزيد من الأشعة فتفتحت بكل نضرة النضوج المبكر ، قد جعلت حسنها البريء سطوة لها ، ومثار إعجاب للكافة ، ومبعث خطر لي . لم تكن تهتم البتة بإخفائه عني أو تزيينه لعيني . لم تفكر في هذا الشأن أكثر مما تفكر أخت فيما إذا كانت في عين أخيها جميلة أو دميمة . لم تعد إلى زيادة وردة في شعرها أو لانقاص وردة منه من أجلي . أو إلى الاتعال عندما كانت تلبس أخويها الصغيرين صباحا فوق الشرفة في الشمس ، أو عندما كانت تساعد جدتها في كنس الأوراق الجافة التي سقطت ليلا فوق السطح . وكانت تلج في كل وقت غرفتي ، المفتوحة دائما ، وتجلس بنفس البراءة التي يجلس بها يلبو على المقعد بجوار سريري .

وفي أيام الغيث كنت أنفق ساعات بطولها منفردا بها في الغرفة المجاورة ، التي كانت تنام فيها مع الطفلين ، وتشغل بصناعة المرجان . وكنت أعاونها في حرقها التي علمتني إياها ، ونحن نسمر ونلهو . وإذا كنت أقل منها مهارة واسكن أقوى بنية فقد كنت أنجح منها في ترقيق القطع . وكذلك كنا تؤدي عملا مضاعفا ، فكان يومها يعدل يومين .

وفي المساء ، على النقيض ، عندما يخلد الأطفال والأسرة إلى النوم كانت هي تصير التلميذة وأنا أصير المعلم ، كنت ألقنها القراءة والكتابة بأن أجعلها تهجئ الحروف في كتيبتي ، وأمسك بيدها لكي أعلمها كيف تخطها . وإذا كان ابن خالها لا يستطيع الحضور كل يوم فإنني

محلله . وسواء لأن هذا الشاب ، الشائه الاحدب ، لم يكن
لعمته قسطا كافيا من الجاذبية والاحترام ، رغم رفته وصبره
، أو لأنها هي نفسها كان ينتابها كثير من الشرود خلال
كانت تظهر معه تقديما أقل بكثير مما تظهره معي . كان نصف
ينقضى فى الدعابة ، والضحك ، وتقليد الملم . وكان الشاب
د كلفا بتلميذته وأكثر خجلا أمامها من أن يزجرها .
كل ما ترومه الفتاة حتى لا يثنى حاجباها الجميلان حنقا
حتى لا نزم له شفيتها زمتهما الصغيرة . وكثيراً ما كان
سة المخصصة للقراءة فى تنظيف حبوب المرجان ، فى
الصوف عن مغزل الجدة ، أو فى رتق الخروق فى

، شىء عنده على ما يرام ، مادامت جرازىلا تبتسم له
ظلة انصرافه ، وتقول له « وداعا » ! حيث تود أن تقول له
« ا » .

— ٣ —

مى فعلى النقيض كان الدرس جديا . وكثيراً ما كان يمتد
، النعاس أجهنا ننا . وكان يرى الرأى ، من رأيه المحنى ،
ئب ، وثباتها المنتبه المتجلى فى وضعها وفى سياتها ، أن الفتاة
، قصارى جهدها فى سبيل النجاح . كانت تعتمد مرفقها على كتفى
يكسب حيث تخط لأصبعى الخط . وتدلها على الكلمة التى يتعين

أن تنطقها ، وعندما كانت تكتب ، كنت أمسك أصابعها بيدي
لأفود قلبها شيئاً ما .

وعندما كانت ترتكب غلطة ، كنت أعنفها في مظهر حازم وحاد :
رأيت لا ترد ، ولا تتأفف إلا من نفسها ، وفي بعض الأحيان كنت
أراها موشكة على البكاء ، وعندئذ كنت أعود إلى تلطيف صو
وتشجيعها على البدء من جديد . أما إذا أجادت القراءة أو الكتابة
فكنت على العكس أراها تنشد من تلقاء نفسها مكافأته في إطو
إياها وامتداحها . كانت تستدير نحوي ، وقد توردت خجلاً ، وارتسم
على جبينها وفي عينيها ومضات من الغبطة المزهوة ، وهي أ
فخرأ بالسرور الذي هيأته لي منها بالنصر الصغير الذي أحرم
بنجاحها .

وكنت أ كافئها بأن أطالع لها بضع صفحات من بول وفرج
التي كانت تؤثرها على كل شيء ، أو بضع أبيات من لوتاس
يصف الحياة الريفية للرعاة التي كانت تسأ كنهم دهرميني ، أو
يتغنى بلوعة محبين من المحبين أو بياسهما . كان جرس هذه الآث
يجعلها تستعبر وتحلم طويلاً عقب توقفي عن المطالعة . ليس
صدي أبقى رنيناً وأبقى أمداً من قلب الشباب الذي يتمخض
الحب وليدأ لأنه بمثابة استشعار لجميع العواطف سلفاً . وهو ق
بمثابة ذكرى لها أو حداد . وكذلك فإنه يدفع إلى البكاء في
الحياة المتباعدين جميعاً : الشباب ، على الأمنيات ، والحش
على الحسرات .

إن المؤانسات الفاتنة في هذه السهرات الطويلة العذبة على بصيص
المصباح ، وعلى دفء المِسْتَقْسَل تحت أقدامنا ، لم تفيض بيننا قط إلى
أفكار وألفات غير ما ينشأ منها بين الأطفال . كان كلانا محميا ،
أنا بغفلى الباردة تقريبا ، وهى بسذاجتها وطهارتها . وكما نفترق
بنفس الهدوء الذى اجتمعنا به ، وعقب تلك المسامرات المستطيلة بالحملة
كنا ننام تحت سقف واحد ، لا تفصلنا غير بضعة خطوات ، شأننا
شأن طفلين لعبا سويا فى المساء ، ولا يراودهما فى الحلم شيء يخرج عن
تسليتها البسيطة . وقد كان هذا الهدوء فى العواطف التى لا تعنى بوجودها ،
والتي تستمد غذاءها من ذاتها قيما بأن يطول سنين لولا ظرف غير
يجرى الأمور ، وكشف لنا عن طبيعة صداقة كانت حسبنا لنكون على
هذا المبلغ من السعادة .

كان سيكو ، وهو اسم ابن خال جرازيللا ، يواظب على الحضور
بمشاركة تزايد يوما لآخر يوم ، لى ينفق ليا إلى الشناء مع أسرة البحار .
ومع أن الفتاة لم تبد له بادرة إيثار ، بل كان مناط دعايتها وشبه الدوبة
فى نظرها ، فقد كان رقيق الحاشية ، موفور الصبر ، جهم التواضع
أمامها حتى إنها لم تتمالك نفسها من أن تتأثر بمجاملاته ، وأن تنبسم له
أحيانا بعطف ومودة . وكان هذا حسبه . فقد كان مجبولا على فطرة

ضعاف القلوب ، لكن رفاقها ، الذين يشعرون بأن الطبيعة قد حرمتهم المزايا التي تجعل المرء محبوباً ، فيقتنعون بأن يحبوا دون تحاب ، والذين يتفانون تفاني العبيد مختارين ، إن لم يكن في سبيل إسعاد المرأة التي يُخَصِّصُهمون لها قلوبهم ، ففي خدمتها . وهذه الفطرة من فطر الحب ، إن لم تكن أنبلها فهي أبلغها تأثيراً . فهي تستدر الرثاء والإشفاق واسكنها تستوجب الإعجاب ، أن تحب لكي تكون محبوباً فهذا من خصال الإنسان ، أما أن تحب من أجل الحب فهذا من خصال الملائكة !

- ٦ -

كانت ممة مسحة ملائكية في حب سيكو المسكين تتوارى وراء قسيانته القبيحة . لذلك فإنه لم يكن يحس ذلة أو غيرة من الألفة والإيثار اللذين كانت تخصني بهما جرازيلاً أمام أنظاره . بل كان يحبني لأنها تهبني . لم يكن يطالب في عاطفة بذت عمدته المسكان الأول أو المسكان الوحيد . بل الثاني أو الأخير: كان أي شيء يكفيه ، ولكي يعجبها لحظة ، لكي يحصل منها على نظرة رضا ، لفظة أو كلمة لطيفة ، لجاء ليبحث عني في قلب فرنسا ويعيدني إلى تلك التي تؤثرني عليه ، بل أعتقد أنني لو قد سببت لبنت عمدته ألباً لا بدضني بغضاً .

كانت مبعث زهوه كما كانت موضع حبه . ولعله أيضاً ، وهو الفاتر في دخيلته ، الرزين ، الأريب ، الدقيق كما خَاصَّته ربه وكما جَسَّه له عجزه — لعله كان يقدر تقديرأ عزيزاً أن سلطاناً على ميول بذت عمدته إن يكون أزيلاً ، وأن ظرفاً من الظروف ، ظرفاً محتوماً ، سوف

يفرق شملنا ، وأنى غريب ، ومن بلد بعيد ، وأن لى من المسكانة والثروة
ما لا يتناسب بداهة مع مكانة ابنة نوقى من بروسيدا ، وأن الوشيعة
الخميمة القائمة بينى وبين بنت عمته ستقطع يوما مثلها اتصلت ، وأنها
حينئذ ستبقى له وحيدة مهجورة يائسة ، وأن هذا اليأس نفسه سوف
يلين قلبها ويصلبه لإياه محطما لسكن كاملا غير منقوص . إن دور المواسى
والصديق هذا كان الدور الوحيد الذى يمكنه أن يطمع فيه . إلا أن
أباه كان يضرع له ففكرة أخرى .

- ٧ -

كان الأب يعرف حب سىكو لبنت أخته ، ولذا كان يحب ليراهما
بين آونة وأخرى ، ولذا تأثر بهما لها ورجاحة عقابها ، وتعجب لما حققته
من تقدم سريع فى مزاولة صناعتها ، وفى القراءة والكتابة ، وفكر
من جهة أخرى أن ما حاق بسىكو من أذى الطليعة ان يسمح له أن
يصبر إلى غير ما يليه الأرب والقرابة من عواطف ، فقد قرأ أن يزوج
ابنه من بنت أخته . ولما كانت ثروته موفورة ، وكبيرة بالقياس إلى
حامل مثله ، فقد كان يعد طلبه فضلا سابغا لن يفكر أندريا وزوجته
والفتاة فى مقاومته . وسواء أكان قد حدث سىكو فى شأن مشروعه ،
أو كان قد أخفى عنه فكرة ليفاجئه مفاجأة سارة ، فقد عقد العزم على
أن يفاتحهم فى الأمر .

- ٨ -

وفى عشية عيد الميلاد عدت متأخراً عن المعتاد لآخذ مكانى فى عشاء
الأسرة ، فلاحظت شيئا من الفتور والاضطراب فى وجه أندريا

وزوجته . ورفعت أنظارى إلى جرازىلا فرأيت أنها كانت قد بكّت .
وكان وجهها عادة يبلغ من الصفاء والمرح لدرجة أن مسحة الحزن غير
المألوفة هذه كانت كأنما تغطيها بحجاب حقيقى . حتى لكان ظلال أفكارها
وقلبها قد انتشرت على قسمتها . ولبثت متصلبا صامتا لا أجروء على
سؤال أولئك القوم المساكين ولا محادثة جرازىلا ، خشية أن يفجر
مجرد سماع صوتى قلبها الذى يبدو أنها لا تكاد تملكته .

لم تكن تنظر إلىّ ، على خلاف عادتها . كانت تتناول بيد شاردة
كسرات الخبز فتضعها فى فمها ، وتتنظر بأنها مقبلة على الأكل ، واسكنها .
لم تستطع . فقد كانت تلتق بالخبز تحت المائدة . وقبل نهاية الوجبة ،
الحزينة تعللت بحجة الذهاب لتنويم الأطفال ، وقادتهم إلى غرفتهم ،
واحسبت نفسها هناك دون أن تودع والديها أو تودعنى ، وتركتهما
وحدهما .

وعندما خرجت ، سألت الأب والام عن علة خطورة أفكارهما
وحزن ابنتهما . فروى لى أن أبى سيكو جاء أثناء النهار إلى البيت .
وطلب يد حفيدتهما لابتة ، وأن هذا يعد سعادة كبرى وحظا موافيا
للأسرة ، وأن سيكو سوف يكون ذاميسرة ، وأن جرازىلا - وهى طيبة
السريرة ستأخذ معها أخويها الصغيرين وتربهم كما تنهما ابناها ، وهكذا
تكون أيام شيخوختها مؤمنة ضد البؤس ، وأنهما وافقا على هذا
الزواج شاكرين وحدثا جرازىلا فى شأنه فلم تجب بشئ مخفرا واستحياء .
وأن صحتها ودموعها كانا نتيجة مفاجأتها وانفعالها ، بيد أن هذا سيمر
مرور الذبابة على الزهرة ، وأخيرا أنه قد تقرّر فيما بين أبى سيكو وبينهما
أن تعقد الخطبة عقب عيد الميلاد .

وابشا يتكلمان إلا أنى كنت كففت عن الاستماع منذ زمن طويل .
ثم أكن قد استجليت قط كنهه العاطفة التى أكنها لجرازيلا . لم أكن
أعرف كيف عشقتها ، وما إذا كان ميل نحوها يتألف من الألفة
الصافية ، أو الصداقة ، أو العادة ، أو من كل هذه العواطف مجتمعة .
إلا أن فكرة أن أرى كل وشائج الحياة والقلب العذبة هذه تتغير هكذا
بغتة بعد أن توطدت وكأنها التجمت بينها وبينى دون أن تدري ،
فكرة أنها سوف تنزع منى لتمطى لجأه لغيرى ، وأنها بعد أن كانت
رفيقتى وشقيقتى كما هو شأنها الآن سوف تصبح غريبة عنى غير حافلة
بى ، وأنها سوف لا تكون هنا بجاني ، وأنى أن أعود فأراها فى كل
حين ، وإن أعود فأسمع صوتها ينادى بى ، وأنى أن أطلع فى عينيها
هذا الشعاع المشرق دائما نحوى من النور الرقيق والحنان الدفوق الذى
ينير قلبى فى عذوبة ويذكرنى بأسمى وأخواتى ، والفراغ والليل العميق
اللىذان أتصورهما يكتفانى نجاة ، هنا ، غداة يمضى بها زوجها إلى بيت
آخر ، وهذه الغرفة التى أن تنام فيها وغرفى التى أن تلجأ ، وتلك
المائدة التى أن أراها تختلف إليها ، وتلك الشرفة التى أن أستمع فيها إلى
ديب قدميها العاريتين أو إلى صوتها فى الصبح عند صعودى ، وهذه
السكنائس التى أن أقودها أيام الأحد ، وهذا القارب الذى سيطر
مكانها فيه شاغرا والذى أن أتحدث فيه إلا إلى الريح والموج ، والصور
المزدحمة لكل هذه العادات الرقيقة فى حياتنا الماضية التى تتوارد
على خاطرى دفعة واحدة ثم تقبخر على حين غرة لتتركنى كأنما فى هوة
حين العزلة ومن العدم ، كل ذلك أشعر فى لأول مرة بما كانت بالقياس

إلى صحبة هذه الفتاة ، وأوضح لي أيما ليضاح أن العاطفة التي تربطني بها ، حبا كانت أو صداقة ، كانت أقوى مما أعتقد وأن فتنة حياتي الحمجية في نابولي ، دون أن أدري أنا نفسي ، لم تكن في البحر ، ولا في القارب ، ولا في الصيد ، ولا في زوجته ، ولا في يدي ، ولا في الأطفال وإنما في مخلوق واحد ، وأن هذا المخلوق إذ يختفي من البيت يختفي معه كل شيء . هي على الأقل في حياتي الراحنة ، وليس فيها سواها شيء . لقد شعرت بأن هذه العاطفة الغامضة حتى ذلك الوقت ، والتي لم أكن قد أقررت بها قط كالتالي ضربة تبلغ من فداحتها أن قاي أصابته منها هزة ، وأني أحسست بشيء من لانهاية الحب فيما تمثل لي من الحزن اللانهائي الذي شعر قلبي فجأة أنه ينغمر فيه .

— ١٠ —

عدت إلى غرفتي في سكون . وارتعيت بملابسي كاملة فوق سريري وحاولت أن أقرأ ، أن أكتب ، أن أفكر ، أن أتلهى ببعض عمل ذهني شاق يمكن أن يسيطر على اضطرابي . ولكن كان ذلك كله عبثا . كان الاضطراب الباطني من الشدة بحيث لم أستطع أن يكون لدى فكري ، وبحيث أن لإنهاك قواي نفسه لم يمكن أن يفضي إلى النوم . أبدأ ما تراءت صورة جراديل اغاية الآن في مثل هذه الفتنة ، وهذا العناد أمام أفكاري . كنت أستمتع بها كشيء يراه المرء كل يوم ولا يشعر بعذوبته إلا عندما يفقده . حتى جمالها نفسه لم يكن لي شيئا يذكر حتى آنذاك فقد كنت أخاطب بين التأثير الذي أحسه منه وبين أثر الصداقة التي يعبر عنها عيائها . لم أكن أدري أن ثمة مثل هذا القدر من الإعجاب

ينطوى تحت علاقتي بها . ولم ين يخالجنى ظن في أن حنانها ينطوى على ذرة من غرام .

لم أدرك ذلك كله ، حتى في الجولات الطويلة التي قام بها قلبي خلال ما انتابني تلك الليلة من سهاد . كان كل شيء مختلطا في ألى شأنه في عواطفى . كان مثلى كمثل رجل دوخته ضربة مفاجئة ولا يدرى تماما بما يتألم ولا كنهه يتألم من كل موضع .

وغادرت سرى قبل أن يسمع في البيت أى صوت . ولست أدرى أى غريزة حملتنى على الابتعاد بعض الوقت ، كأن وجودى قين بأن يزجج في لحظة كهذه محراب تلك الأسره التي كان مصيرها يضطرب هكئذا أمام رجل غريب .

خرجت منها يلبو إلى أنى سوف لا أحضر لبعضة أيام . واتخذت بالصدفة الاتجاه الذى رسمته لى أولى خطواتى . تبعته أرصفة نابولي المستطيلة ، وساحل ريزينا ، وبورنيكا ، وسفوح بركان فيزوف . واستعنت بأدلاء في تورى دبل جريكو ، ورقدت على حجر عند باب صومعة سان سالفاتورى ، فى المشـارف التى تلتقى عندها الطبيعة المأهولة وتبدأ منطقة اللحم والنيران . وإذا كان البركان منذ مدة فى حالة ثوران ، وينفث فى كل هزة سحبا من الرماد والأحجار كسنا نسمعها تنحدر فى الليل إلى خور اللحم عند سفح الصومعة ؛ فقد رفض أدلائى أن يرافقونى أبعد من ذلك . فصعدت وحدى ، تسلقت بعناء المخروط الأخير غارساً قدمى ويدى فى رماد كثيف ومشتعل ينهار تحت ثقل الإنسان وكان البركان يهدر ويرعد بين لحظة وأخرى وكانت الأحجار المحترقة والى هازالت متوجهة تنهمر حولى كالمطر هنا وهناك ثم تنطفئ فى الرماد .

وما من شيء أوقفنى . وصلت إلى أقصى حافة فوهة البركان وجلست .

رأيت الشمس تشرق على الخليج ، وعلى الريف ، وعلى مدينة نابولي
الباهرة . وكنت متبلد الإحساس وفاتراً لزام هذا المشهد الذى يفد السياح
من بعد ألف فرسخ معجبين به . لم أكن أبحت فى هذا الخضم الهائل
من الضياء ، والبحار . والسواحل . والعبائر التى تلفحها الشمس ،
لأعن بقعة بيضاء صغيرة وسط خضرة الأشجار الداكنة على ظن
أن أمير كوخ أندريا . ليس يجدى الإنسان أن يتأمل المدى ويطوقه
فإن الطبيعة بأسرها لا تتألف فى نظره إلا من نقطتين أو ثلاث نقاط
محسوسة هى مناط روحه بجماعها . احذف من الحياة الفؤاد الذى
يهواك : فإذا ببق لك فيها ؟ كذلك الأمر فما يتعلق بالطبيعة . امح
منها الموضوع أو البيت الذى تنشده أفكارك أو تعمده ذكرياتك فما
هى سوى فراغ صارخ يغوص فيه النظر دون أن تجد قاعاً ولا قراراً .

هل يجوز أن يدهشنا بعد ذلك أن أسمى مشاهد الخليقة يتأملها السياح
بعين متباينة ؟ ذلك أن كل امرئ يحمل معه وجهة نظره . وإن سحابة
تغشى النفس لتغطي الأرض وتحيل لونها أكثر مما تفعل سحابة فوق
الآفاق : إنما المشهد فى المشاهد . لقد جربت ذلك .

- ١١ -

كنت أنظر كل شيء ، ولا أرى أى شيء . عبثاً كنت أهبط كالنخبول
متشبثاً بقرون الحمم الخامد ، حتى قاع الفوهة . عبثاً اجتزت الشقوق
العبيقة التى كان ما يتصاعد منها من دخان ولهب زاحف يخنقنى

ويجرحني . عشنا كنت أنامل حقول الكبريت والملح المتبلور
الفسيفساء الشبيهة بحقول جايد تلونها السنة النار هذه . فقد لبثت جامداً
حيال الإعجاب مجردى حيال الخطر . كانت روحى فى موضع آخر
وعشنا أردت أن أسترجعها .

وفى المساء هبطت عائداً إلى الصومعة . وصرفت أدلائى ، وعدت
أدراجى خلال كروم بومبى . وأنفقت يوماً بطوله متجولاً فى الشوارع
المقفرة بتلك المدينة المظلمة . هذا القبر الذى فتح بعد ألف سنة
معرضاً للشمس من جديد شوارع وآثاره وفنونه خلفتني متبدل
الإحساس مثلاً خلفتني بركان فيزوف . فإن روح هذا الرماد كله قد ذرت
منذ عديد القرون ريح الله حتى أنها لم تعد تخاطب قلبى . كنت أظن
بقدمى رفات الناس هذه فى شوارع مدينتهم المندثرة بعدم المبالاة التى
أظن بها أكرام الأصداف الفادغة التى يطرحها البحر إلى شاطئه . إن
الزمان بحر مهول يطفح ، كالبحر الآخر ، رميم البشر . والمرء لا يمكن
أن يبكى على كل شئ . فكل امرئ آلامه ، ولكل عصر إشفافه
وحناؤه ، وفى هذا كل الكفاية .

وإذ غادرت بومبى ، توغلت فى حلق جبال كاستلامارى
وسورانتى الكثيفة الأحرار . وعشت هناك بضعة أيام ، منتقلا من
قرية إلى أخرى ، وتاركاً لرعاة الماعز اقتيادى إلى أشهر البقاع فى جبالهم .
وحسبني الناس رساما يدرس المناظر ، لأنى كنت أدون من حين إلى حين
بعض المذكرات فى كراسة رسم صغيرة كان قد تركها لى صديق . وما
كنت سوى روح ضالة تهيم هنا وهناك فى الريف لى تفتى الأيام .
وكان شئ ينقصنى ، حتى نفسى .

ولم أطلق الاستمرار أطول من ذلك . فعندها انقضت أعياد الميلاد
وكذلك يوم رأس السنة هذا الذى جعل الناس منه عيداً كأنما ليغزوا
الزمن وليستعطفوه بالأفراح والآ كاليل مثل ضيف فظ صارم يريدون
إلاثة قلبه ، عجأت بالعودة إلى نابولى . عدت إليها ليلاً ومتردداً ، نهياً
بين اللهفة على رؤية جرازيللا ، والنزع العلى بأنى ان أهود أراها ،
وتوقفت عشرين مرة ، وجالست على حواف القوارب عندما دنوت
من مرجليتنا .

وقابلت بيبو على بعد خطوات من المنزل . فأطلق صيحة غبطة عندما
رأى ، وورث متعلقاً برقبتي كأنه أخ صغير . واقفادنى تجاه قاربه ،
وروى لى ما قد وقع منذ غيابى .

كل شىء فى البيت تغير أياًما تغير . لجرازيللا لم يكن لها عمل إلا
البكاء منذ رحلت . ولم تعد تختلف إلى المائدة لتناول الوجبات ولم
تعد تشتغل فى صناعة العقيق . كانت تنفق أيامها جميعاً معتكفة فى غرفتها
بمتعة عن الرد إن دعاها أحد ، وتنفق ليالها جميعاً متجولة فى الشرفة .
وكان يقال فى الجزيرة : إنها قد جنت أو إنها قد عشقت ، إلا أنه كان يعرف
أن هذا غير صحيح .

قال الطفل : إن مأتى الشر كله أنهم أرادوا خطبتها إلى سيكو ،
وأنها ليست تريد . لقد رأى بيبو كل شىء وسمع كل شىء . كان أبو
سيكو يقبل كل يوم طالبا رداً من جده وجدته . ولم يكف هذان عن
تعذيب جرازيللا حتى تعرب آخر الأمر عن رضاها . إلا أنها لم تكن
تشاء أن تسمع حديثاً فى هذا الشأن ، كانت تقول إنه أحرى بها أن
تلتبس الخلاء فى جنيف : وهذا عند الكاثوليك من أهل نابولى
تعبير مرادف لهذا التعبير ، أحرى بى أن أرتد عن دى . وهو تهديد

أنكى من التهديد بالانتحار : فهو بمثابة الانتحار الأبدى للروح .
لقد آيس أندريا وزوجته ، اللذان يعبدان جرازىلا ، من مقاومتها
ومن ضياع آمالهما فى تزويجها فى وقت معا . جمعا يتضرعان لآلها بحق
شعرهما الأشيب ، ويتحدثان لآلها عن شيخوختهما ، وعن تعاستها
وعن مستقبل الطفلين . وعندئذ كان قلب جرازىلا يلين . فجعلت
تخبر سن شيئا ما لقاء سيكو المسكين ، الذى يأتى من آن لأن ليجلس ذليلا
فى الليل على باب غرفة بنت همته ، ويلعب الطفلين . وكان يقرئها
تحية الصباح ويودعها من خلال الباب ، واكنها كانت قلما ترد على
كلمة من كلماته . وكان ينصرف متبرما لكن مصمما ، ثم يعود فى الغدقة
على ما هو عليه . وقال يبيو : إن أختى مخطئة خطأ فادحا ، فإن سيكو
يحبها حبا جما ، وهو طيب جدا ، وهى سوف تكون سعيدة . ثم
أضاف : وأخيرا فقد استجابت لضراعة جدى وجدتى ولدهوع سيكو
فواربت الباب قليلا ، ومدت له يدها ، فرر فى إصبعها خاتما وعدت
بأنها سوف تدعهم يخطبونها غدا . ولكن من يدري ما إذا كانت
لا تواتيها غدا نزوة جديدة ؟ هى التى كانت بالغة الرقة والمرح ارباه
لشد ما تغيرت ! املك ألا تعرفها ؟ .

- ١٢ -

ونام يبيينو فى القارب . أما وقد علت منه بما حدث فقد ولجت
البيت .

كان أندريا وزوجه وحدهما على السطح . واستقبلانى بمودة
وترحيب ، وغمرانى بتأنيب رقيق على غيابى الطويل . ورويا لى متاعهما
وآمالهما فيما يتعلق بجرازىلا . قال لى أندريا : « لو قد كنت هنا ، أنصف

الذى تحبه جرازىلا كثيرا ولا تقول له كلا أبدا ، لعاونتنا أيا عون .
لشدمانحن مسروران لرؤيتك ثانية ! غدا سوف تعقد الخطبة ، وسوف
تحضرها ، إن وجودك جلب لنا السعادة دائما .

شعرت برعدة تسرى في جميع أوصالى لزاء أقوال أولئك القوم
المساكين هذه . كان هاتف يهتف بى أنى مأتى بلائهم . وكنت أنحرق
وأرتعد لرؤية جرازىلا . وتضمنت أن أتحدث إلى أبويها بصوت عال .
وأن أروح وأجىء أمام بابها مثل امرئ لا يروم أن ينادى ولكن
يرغب أن يسمع . ولسكنها لبثت صماء بكاء ولم تظهر . فولجت غرفتى
ورقدت . وأخيراً استولى على ذهنى ضرب من الهدوء الذى يولده
دائماً فى النفس المضطربة انقضاء الشك والاستيقان من أمر أى أمر ،
حتى لو كان الكرب . وقعت على سريرى مثل وقر موات ليس به حراك .
ولم ألبث أن ألقانى ضئى أفكارى وأعضائى فى أضغاث الأحلام ثم فى
خفاء السبات .

- ١٣ -

أرقت وتنهت قليلا مرتين أو ثلاث مرات فى تلك الليلة . كانت
ليلة من ليالى الشتاء هذه الأندر ولكن الأشأم منها فى أية بقعة أخرى
فى الأقاليم الحارة وعلى شاطئ البحر . كانت ومضات البرق تندفق بلا
انقطاع خلال فروج مصراعى نافذتى كأنها مهد يقات عين من نار على
جدران غرفتى . وكانت الريح تعوى كأنها قطيع من السكالب الجائعة .
وكانت الطلمات الصماء التى يكيلها البحر المصطخب لساحل مارجلينا

تثير في الشاطئ . كله دويا شديدا كأنما قد ألقت فيه كتلا من
الصخور .

وكان باني يهتز ويصطفق من لفحات الريح ، وخلمت مرتين أو ثلاث
مرات أنه أنفتح ، وأنه انفلق من تلقاء نفسه ، وأنى سمعت صراخا
مختلعا ونشيجا بشريا يختلط بهزيم الرعد وأنين العاصفة . بل ظننت
ذات مرة أن أقوالا تتردد وأن اسمي ينطق به صوت واقع في شدة لعله
يمتدحني طالبا نجدة ! فنهضت وقعدت في فراشي ، غير أني لم أعد أسمع
شيئا : فاعتقدت أن العاصفة ، والحمى ، والأحلام قد أغرقني في الأوهام ،
واستغرقت ثانية في النوم .

وفي الصباح كانت العاصفة قد مهدت للشمس الساطعة . وأيقظني
نسيم حقيقي وولولة يأس من الصياد الفقير وزوجته وهما يندبان على
حبة جرازيل . فإن المسكينة الصغيرة قد لاذت بالفرار أثناء الليل .
لقد استيقظت وعانقت الأطفال مشيرة إليهم بالترام السكوت . وتركت
فوق السرير كل الجليل من ثيابها ، وأقراطها ، وعقودها ، والنزير اليسير
من النقود التي تملكها .

وكان الأب يمسك في يده بقصاصة ورق مشوبة ببضع قطرات من
الماء ، وجدت مثبتة بدبوس فوق السرير . وكان بها خمسة أسفار أوسنة ،
رجاني حائرا أن أقرأها . ولم تكن تتضمن سوى تلك الكلمات المكتوبة
في ارتجاف أثناء نوبة الحمى ، والتي وجدت مشقة في قراءتها لقد وعدت
شططا ، إن هاتفا ينبئني بأن ذلك لا قبل لي به ، أقبل أقدامكم أن
تصفحوا عني . أفضل أن أصير راهبة . سرورا عن سيكو وعن السيد .

سوف أصل من أجله ومن أجل الطفلين ، أعطوهما كل ما امتلك .
وأعيدوا الخاتم إلى سيكو ...

لدى قراءة هذه الأسطر فاضت دموع الأسرة كلها من جديد .
وإذ سمع الطفلان الصغيران ، وكانا لا يزالان عاريين ، أن أختهما قد
رحلت إلى الأبد ، خاطبا نواحهما بنحيب الشيوخين ، وطفقا يعدوان في
أرجاء المنزل منادين جرازيل !

- ١٤ -

سقطت القصاصة من يدي . . وأردت أن ألتقطها ، فرأيت على
الأرض ، تحت بابي ، زهرة رمان كنت قد أعجبت بها يوم الأحد
السابق في شعر الفتاة ، والأيقونة الصغيرة التي كانت تحملها دائما والتي
علقتها منذ بضعة أشهر في ستارة سريري لإبان مرضي . ولم يعد يخالفني
الشك في أن بابي قد فتح فعلا ثم أغلق أثناء الليل ، وأن الكلمات
والشبهات المختنقة التي ظننت أنني سمعتها وحسبتها أنات الريح كانت وداع
الصبية المسكينة ونشيجها .

وكان موضع « جاف » على العتبة الخارجية لمدخل غرفتي ، وسط
آثار المطر التي تلتطخ بقية الشرفة كلها ، يثبت أن الفتاة كانت قد جلست
هناك خلال العاصفة ، وأنها قد أنفقت ساعاتها الأخيرة في الانين
والنحيب ، قابضة أو راکعة فوق هذا الحجر . والتقطت زهرة الرمان
الأيقونة ودسستها في صدري .

ولقد تأثر القوم المساكين ، في غمار بأسهم ، لرؤيتي أبكي مثلهم .

فعلت كل ما في وسعي كيما أسرى عنهم . وتم الاتفاق على أنهم إذا
عثروا على ابنتهم فلن يعود أحد فيحدثها عن سيكو ، وكان سيكوذاته ،
الذى ذهب يلبو ليحضره ، أول من ضحى بنفسه في سبيل سلام الدار ،
وعودة بنت عمته . ومهما كان مبلغ يأسه فقد كان جليلا أنه سعيد لأن
اسمه ورد في القصاصة بركة ، وأنه وجد ضربا من السلوة في الوداع
نفسه الذى سبب يأسه . قال : « لقد فكرت في على كل حال ، ثم
كشف دمه ، وفي الحال اتفقت فيما بيننا على أننا لن نعلم بلحظة من
الراحة قبل أن نقف على أثر الحاربة .

وانطلق الأب وسيكو على عجل ليستقصوا في أدبرة النساء المتعددة
في المدينة . وهرع يلبو والجدة إلى جميع أتراب جرازيللا اللاتي يشتهن
في أن تكون أسرت لهن بشيء عن أفكارها وهرجها . أما أنا ، فلأني
غريب ، تكلمت بزيارة الأرصنة ومرافق نابولي ومراسى البلدة لسكى
أسأل رجال الشرطة ، وقباطنة السفن ، والنوتية ، ولسكى أعرف
ما إذا كان أحدهم قد شاهد فتاة روميدية تخرج من المدينة وتبحر
في الصباح .

وانقضى الضحى في بحوث راحت مدى . وعدنا جميعا إلى الدار
صامتين مكروين لسكى نروى لبعضنا بعضا مساعينا ، ولسكى نتسار
من جديد وما من أحد فيما خلا الطفلين ، وافته القدرة على أن يضع لقمة في
فمه ، وجلس أندريا وزوجه كسيرى الخاطر على عتبة غرفة جرازيللا .
وعاد يلبو وسيكو إلى التجول بغير أمل في الشوارع وفي السكنائس ،
التي تفتح ليلا في نابولي للطلبة والتماس البركة .

خرجت وحدى بعدهم ، وسلكت فى حزن وبالصدفة الطريق
المفضية إلى كهف اليوزيليب . اجتزت الكهف ، ومضيت حتى شاطئ
البحر الذى تستحم فيه جزيرة نيزيدا الصغيرة .

وعلى شاطئ البحر تطلعت عيناى إلى جزيرة بروسيدا التى ترى
من هناك بيضاء ناصعة كأنها سقف سلحفاة فوق زرقاء الأمواج . وكان
من الطبيعى أن تتطلع أفكارى إلى تلك الجزيرة وإلى أيام الأعياد هذه
التي أنفقها فيها مع جرازىلا . وكان يقودنى إليها الإلهام . تذكرت أن
الفتاة كان لها هناك صديقة تنافسها فى العمر ، ابنة رجل فقير من
سكان الأكواخ المجاورة ، وأن تلك الفتاة كانت ترتدى زياً خاصاً
يختلف عن زى أتراكها ، وأنى ذات يوم سألتها عن دوافع هذا
الاختلاف فى زيها ، فأجابتنى بأنها راهبة ، ولو أنها تقيم حرة لدى
أبويها فى حالة وسط بين حياة الأديرة وحياة الأسرة . وقد أرتقى
كنيسة ديرها . وكان ثمة كثير منها فى الجزيرة ، وكذلك فى إيسكيا
وفى قرى ريف نابولى .

نظرت لى ففكرت أن جرازىلا ، وقد شامت أن تنذر نفسها لله ،
ربما مضت لتبوح بسرها إلى هذه الصديقة وتسألها أن تفتح لها أبواب
ديرها . ولم أدع لى نفسى متمسعا من الوقت لأفكر ، وكنت سائراً فعلاً
بخطى حثيثة على طريق بوزوليس ، أقرب مدينة إلى بروسيدا توجد
بها قوارب .

بلغت بوزوايس فى أقل من ساعة ، وعدوت إلى المرفأ عدوا ،
ودفعت أجرا مضاعفا لمجدفين لىكى أحثما على طرحى فى بروسيدا
رغم هياج البحر وانسدال الليل ووضعها قاربها فوق الموج ، وأمسكت
معهما بزوج من المجاديف ، وجاوزنا رأس مسينا بعناء . وبعد ساعتين
بلغت الجزيرة وجعلت أتساق وحيدا — لاهثا مبهور الانفاس ،
مرتعد الاوصال ، متخبطا فى الظلمات ، متلقيا لطمات ريح الشتاء —
أتساق مدارج المطلع الطويل الذى يفضى إلى كوخ أندريا .

— ١٦ —

قلت لنفسى : إذا كانت جرازيلافى الجزيرة ، فلا بد أن تكون
أنث هنا أولا ، مدفوعة بالغريزة الطبيعية التى تسوق الطير إلى عشه
والطفل نحو بيت أبيه . وإذا كانت لم نعد فيها فإن بعض الآثار متبشئ
بأنها قد مرت بها . ولعل هذه الآثار أن تقودنى إلى حيث توجد . وإذا
لم أجدها أو أجد آثارا لها فقد قضى الأمر ، فإن أبواب قبر حى
تكون قد أغلقت على شبابها إلى الأبد .

وطئت آخر درجة فى المطلع ، وأنا نهب لهذا الشك المروع .
وكنت أعرف فى أى شق بالصخر قد خبأت الأم العجوز عند رحيلها
مفتاح المنزل . فأزحت اللباب جانبا ودست فيه يدى . وجعلت
أصابى تنحسسه بمحما عن المفتاح ، وقفه تقلصت خشية أن تحس فيه برودة
الحديد التى ما كانت لتدع لى أى أمل . . .

لم يكن المفتاح هناك . فأطلقت صيحة فرح محتنقة ودخلت إلى الفناء

في خطوات صامتة . وكان الباب والنوافذ موصدة ، وكان بصيص خافت يتسلل من شقوق النافذة وينسدل على أوراق شجرة التين من مصباح موقد في المسكن . من في استطاعته أن يجد المفتاح ، ويفتح الباب ، ويضئ المصباح إن لم يكن ابنة المنزل ؟ لم يخالجنى الشك في أن جراز يلا على قيد خطوتين مني ، وجثوث على ركبتى فوق آخر درجات السلم لأشكر الملك الذى اقتادنى إليها .

- ١٧ -

ما من صوت كان يصدر من الدار . وألصقت أذنى بالعتبة ، وخلعت أنى أسمع صوت تنفس واهيا وما يشبه النشيج داخل الغرفة الثانية . فبهزت الباب هزاً رقيقاً كما لو كان قد ارتج فقط فوق مفصله بفعل الريح ، بقصد استرعاء انتباه جراز يلا رويدا رويدا ، وحتى لا يقتلها الرنين المفاجئ وغير المتوقع لصوت آدمى عندما يناديها . وتوقف التنفس . وعندئذ ناديت جراز يلا بصوت خفيض وبأهدأ وأرق لهجة أمكننى أن أجدها في قلبي . . فجاءتني من داخل الدار صرخة واهنة .

فناديت من جديد ، مناشداً إياها أن تفتح لصديقها ، لاختها الذى جاء وحيداً ، في الليل ، خلال العاصفة ، يرشده ملكه الطيب — جاء يبحث عنها ، ويكتشف مكانها ، وينزعها من لجة يأسها ، ويحمل لها صفيح أسرتها ، وصفحه ، ويعيدها إلى واجبها ، إلى معادتها ، إلى جدتها المسكينة ، وإلى عزيزها الصغيرين !

فصاحت صيحة قوية : « رباہ ! هو ذا اسمی ! هو ذا صوته ! »
فناديتها نداء أرق : « جراز بیلمنا ، اسم التذليل هذا الذى كنت
أدعوها به أحيانا عندما نخرج سويا فقالت : « أوہ ! هو ذا لعمری !
لم أخطئ فى ظنی ! رباہ ! هو ذا ! » .

وسمعتها تتحامل لتمض فوق الأوراق الجافة التى تخشخش لدى كل
حركة من حركاتها ، وتخطو خطوة لى تقبل فتفتح لى ، ثم تسقط ثانية
من الإعياء ، أو من الانفعال ، دون أن توانيها القدرة على التقدم .

- ١٨ -

ولم أعد أتردد ، فدفعت الباب القديم بكتفى بكل القوة التى أمدنى
بها جزعى وقلقى ، فانهار المزلاج وانفصل تحت ضغط الجهد ،
هراندفعت إلى داخل الدار .

وكان المصباح الصغير الذى أشعلته جراز بلا من جديد أمام صورة
العدراء يثيره ببصيص ضئيل . وهرعت إلى داخل الغرفة الثانية حيث
سمعت صوتها وسقطتها ، وحيث اعتقدت أنها مغشى عليها . ولكنها
لم تكن كذلك ، كل ما هنالك أن ضعفها خذل جهدها ، فقد سقطت ثانية
فوق كومة الخللج الجاف التى اتخذت منها سريرا ، وعقدت يديها عندما
أبصرتنى . وكانت عيناها اللتان أذكنتهما الحى ، وقتحتهما الدهشة ،
وأضناها الموى ، تألقان مستقرتين كأنهما نجمتان يبط ضياؤهما من
السماء ، وتخالهما تمنان فيك النظر .

وسقط رأسها ، الذى حاول أن ترفعه ، سقط ثانية على الأوراق
بفعل الضعف ، وقد انقلب إلى الخلف ، وكانما قد تحطم منها العنق .
وكانت شاحبة شحوب النزع الأخير ، فيما خلا فمها حتى الوجنتين المخضبتين
بورد نصير . وكانت بشرتها المرمرية الجميلة مشوبة بعروق من الدموع
والغبار الذى علق بها . وكان ثوبها الأسود يختلط باللون الأسمر للأوراق
المنشورة على الأرض والى اضطجعت عليها . وكانت قدماها الناصعتان
كالمرمر تتجاوزان بطولهما كله كومة الخننج وتمددان فوق الحجر .
وكانت الرعدة تسرى فى جميع أوصالها وتضطرب منها أسنانها كأنها
صناجات فى يد صبي . وكانت عصابة الرأس الحراء التى اعتادت أن تلف
فيها جدائل شعرها الجميل الطويلة الفاحمة — كانت مفككة ومتدلة
كأنها قناع ينسدل فوق جبينها حتى ضفاف عينيها ، وكان جلياً أنها قد
استخدمتها لتدفن بحياها ودموعها فى الظلام وكأنها تدفن سلفاً فى سكون
الكفن ، وأنها لم ترفعها ثانية إلا عندما سمعت صوتى وقعتت كـ
تقبل فتفتح لى .

— ٩٩ —

ارتبعت جانبا على ركبتي بحوار الخننج ، وتناولت يديها المشاحتين
فى يدي ، ورفعتهما إلى شفقي لىكى أدفئهما بأفاسى ، فتساقطت عليهما
قطرات من عبراتى . وفهمت من ضغط أصابعها المرتجفة أنها قد شعرت
بمطر القلب هذا وأنها تشكرنى عليه ، وغلغت معطف البحارة وطرحته
فوق قدميها الخافيتين . ودسستهما فى لفافات الصوف .

وتركتنى أعمل متابعة لإيادى فقط بعينها وقد ارتسم فيهما تعبير عن
النشوة السعيدة ، لكن دون أن تستطيع أن تؤدى لنفسها أية حركة ،
شأنها شأن طفل يستسلم للتقييط واللف فى مهده . ثم رميت حزمتين
أو ثلاث حزمات من الخلدج فى موقد الغرفة الأولى لتدفئة الجو قليلا .
وأشعلته من شعلة المصباح ، وعدت أجلس على الأرض بجوار فراش
الأوراق .

قالت لى فى صوت خفيض ، ولهجة رقيقة ، متزنة ورتيبة ، كما لو
أن صدرها قد فقد فى وقت واحد كل اختلاج وكل نغم ولم يعد يحتفظ
إلا بلحن واحد فى الصوت : « كم أحس أنى فى حال طيبة . عبثا حاولت
أن أخيه الأمر عن نفسى . عبثا حاولت أن أخبئه دائماً عنك ، لقد
أرادوا أن يقدموا لى خطيباً ، إنما أنت خطيب روحى ؛ إن أهب نفسى
الشخص غيرك على ظهر الأرض ؛ لأنى وهبتك نفسى سراً ؛ إنما أنت على
الأرض ، وإما الله فى السماء . . . ذلك هو النذر الذى نذرتة أول
يوم فهمت فيه أن قلبى مريض بك . أعرف جيداً أنى لست إلا فتاة
فقيرة غير جديرة بأن تمس قدميك وحدهما بفكرها . لذلك لم أسألك
قط أن تعجنى . والآن ، احتقرنى ، اسخر منى ، اسحقنى بقدميك ،
اهزأ بى ، إن شئت ، كما تهزأ بمجنونة تتخيل نفسها فى أسماها ملكة .
اجعل منى أضحوكة للعالمين . سأقول لهم : إنى أحبه . ولو كنتم فى
مكانى لفعلمتم مثلبا فعلت ، إنما كنتم أحببتموه وإنا متم . . »

— ٢٠ —

عظمت غاضاعنى ، لا أجرو أن أرفعهما لإيها ، خشية أن يعبر بهرى

أكثر مما ينبغي ، أو ألا يعبر بما يكفي عن مثل هذه النشوة . ومع ذلك
فقدى هذه الكلمات ، رفعت جبينى المعتمد على يدي ، وغمغمت ببعض
الألفاظ .

فوضعت أصابعها على شفتي . « دعنى أقل كل شيء : إني الآن
عسرة ، لا يخالجنى أى شك ، فقد اتضحت إرادة الله . اسمعنى :

« أمس عندما فررت من البيت بعد أن أنفقت الليل بطوله فى المجالدة
والبكاء على بابك ، عندما وصلت إلى هنا خلال العاصفة ، إنما وصلت
معتقدة أنى إن أراك أبداً ، أشبه بميمية تسير من نفسها إلى قبرها . كنت
قد اعتزمت أن أترهب غداً حالما يطالع النهار . لما وصلت إلى الجزيرة
فى الليل ، وذهبت أطرق باب الدير ، كان الوقت متأخراً فوجدت
الباب مغلقاً ، ورفضوا أن يفتحوا لى ، فحضرت إلى هنا كى أنفق الليل ،
وأقبل جدران بيت أبى قبل أن أدخل بيت الله وقبر قلبى . واستكسبت
طفلاً كتباً إلى إحدى صديقاتى كيما تحضر فتأخذنى غداً . وأخذت
المفتاح ، وأضأت المصباح أمام صورة العذراء . وركعت على ركبتي
ونذرت نذراً ، نذراً أخيراً ، نذر الأمل حتى فى هوة اليأس . لأنك
ستعرف ، إن أحببت يوماً ، أنه يبقى دائماً فى أعماق الروح قبس أخير
من النار ، حتى لو ظن المحب أن كل شيء قد انطفأ . قالت لها : « أيتها
الحامية القديسة ، ابعثى لى أمارة على صدق إلهامى تؤكد لى أن الحب
لا يخدعنى ، وأن أقدم حقيقة إلى الله حياة لا يجوز أن يملكها سواه . »

« هاك آخر ليلة أقضيها بين الأحياء . لا أحد يعرف أين أنفقها . »

لعلهم أن يجيثوا غدا ليجثوا عني هنا وقد غدوت في غير هذا المكان .
فإن كانت الصديقة التي أرسلت أباغها هي التي تأتي أولاً فسوف يكون
ذلك أمارة على أني يجب أن أنفذ نيتي ، وسأتبعها إلى الدير إلى الأبد .

و أما إن كان هو الذي يظهر قبلها ، هو الذي يحضر ، يرشده مسلكي
ليكتشفني ويوقفني على حافة حياتي الأخرى . . أوه ! عندئذ يكون
ذلك أمارة على أنك لا تريدني ، وأنني يجب أن أعود معه كي
أهواه بقية أيامي ! ،

وأضفت وممري أن يكون هو ! لبث هذه المعجزة فوق معجزاتك ،
لأن كسانت هذه مشيتك ومشيتة الله ، وكئي أحصل عليها فإني أهبك
هبة ، الهبة الوحيدة التي في مقدوري أن أقدمها ، أنا التي لا أملك شيئاً .
هالك شعري ، شعري المنكود الطويل الذي يحبه والذي طالما فكك
ضاحكا كي يراه يتموج على كتفي في الهواء ، خذيه ، إني أهبك إياه ،
وسوف أقصه بنفسى لكي أثبت لك أني لست أبقى على شيء . ، وأن
رأسي ينصاع سلفا المقص الذي قد يقصه عندما انفصل عن الدنيا . .

وعلى أثر هذه الكلمات ، أزاحت بيدها اليسرى المندبل الحريرى
الذى يعصب رأسها ، ولذتناوات بالأخرى اللغة الطويلة اشعرها
المقصوص ، والملقى بجوارها على سرير الأوراق ، أرتقى لإياه وهي
تدبسه . ثم استأنفت بصوت أقوى وبلهجة غبطة صادقة : د لقد أنت
الغذراء بالمعجزة ! لقد أرسلتك ! سأذهب أني تشاء . إن شعري لها ،
أما حياتي فلك ! . .

فارتفعت على جدائل شعرها الجميل الفاحم المقصوفة ، التي ظلت
 في يدي كأنها غصن موات منتزع من شجرة . وغمرت باقبلات صامتة
 وضغطتها إلى صدري ، ورويتها بدموعي كأنها جزء منها نفسها أدفنته في
 الأرض وهو رميم . ثم رفعت عيني إليها ثانية ، فأبصرت رأسها الفاتن
 الذي رفعت عنقه أجرداً تماماً ، لكن كأنما زائنه تضحيتها وجملته ،
 يتألق غبطة وحبا وسط الشفق الفسحة وغير المتساوية من شعرها
 المقصوص أو الأخرى الممزق بالمقص . بدت لي أشبه بتمثال «الشباب»
 المجدوع الذي يزيد جدع الزمان نفسه من قننته وجماله إذ يضيف الإشفاق
 إلى الإعجاب . إن اعتسافها هذا لنفسها ، وانتحار جمالها هذا في سبيل
 حي ، كالا لقلبي ضربة زعزع ثقلها كياني بأسره وطرحته جبين في الأرض
 تحت قدميها . لقد أحسست ماذا يعنى الحب وأخذت هذا الإحساس
 على أنه الحب !

- ٢١ -

اعتقدت أني كنت أعبيدها كما يليق أن تعبد مثل هذه البراة ،
 وهذا الحسن ، وهذا الحب . وقلت لها ذلك باللهجة الصادقة هذه التي
 يبعثها الانفعال ، وبالوجد المتصل هذا الذي تبعثه الوحشة والليل ،
 واليأس ، والدموع : وصدقت به ، لأنها كانت في حاجة إلى التصديق
 به كي تعيش ، ولأنها كانت تملك في نفسها قدرا من العاطفة يسكني
 لتخطية النقص في ألف قلب آخر .

انقضى الليل بطوله في سمر آمن ، لكن ساذج وطاهر ، سمر مخلوقين

يكشفان كشافاً بريئاً عن حنانهما ، ويريدان لو طال الليل وراء
السكون إلى الأبد حتى لا يجهى شيء غريب عنهما فيعترض ما بين الفم
والقلب . كانت عفتها وتحمضى الخجلان ، وتحنان روحينا نفسه تبعد
عنا كل خطر آخر . كان حجاب دموعنا منسدلاً علينا . ما من شيء
يبعد عن الشهوة مثلاً يبعد الحنان . ولو قد أسى استغلال مثل هذه
الصلة الخيمة لسكان تدنيساً لروحين .

استيقظت يديها فى يدي ، وشعرت بالحياة تدب فيها من جديد .
وذبحت لأحضر لها بعض الماء العذب كي تشرب من كفى وتمسح
جبينها ووجنتيها . وأرثت النار بأن ألقيت فيها ببعض الغصون ، ثم
عدت أجلس فوق الحجر بجوار حزمة الريحان التى يستريح عليها رأسها
لدى أسمع وأسمع نجوى حبها العذبة ، كيف تتولد فى نفسها على غبروى
منها ، تحت مظهر الصداقة الأخوية الخالصة الرقيقة ، وكيف فزعت فى أول
الأمم اطمانت ، وبأى أمانة عرفت آخر الأمر أنها تخبئ ، وكم علامة إشار
خفيفة خستنى بهادون وعى مئى ، وأى يوم اعتقدت أن سرها انكشف ،
وأى يوم ظننت أنها أدركت أنى أبادلها الشعور ، والسويحات ،
والحركات والبسات ، والكلمات منطلقها ومحبستها ، وإفصاحات وجمينا
أو مكنوناتهما غير الإرادية خلال هذه الشهور الستة . لقد وعى
ذاكرتها كل شيء ، فذكرتها بكل شيء ، كعشب جبال الجنوب الذى
أضمرت فيه الريح النار خلال الصيف فيحفظ بأثر الحريق فى كل مكان
حسه اللهب .

وكانت تضيف لنجواها تلك الحرافات العاطفية الغامضة التي تضيف على آفة الظروف شأننا قيمة ومعنى ، كانت ننضو أمامي ، إن جاز القول ، الحجب التي تغشى روحها حجاباً وراء حجاب . كانت تنبدي كأنما أمام الله ، في كامل معشري سدا جنتها وطفواتها ، واستسلامها ، ليس الروح إلا لحظة واحدة في الحياة من تلك اللحظات التي تنسكب فيها بجماعها في روح أخرى ، بذلك الهمس الذي لا يفهم من شفاه لا تمكنني اندفاعها اللاهج ، وينتهي بها الأمر إلى أن تتلجج في صوت متهدج ومهوش كقبيلات طفل يأخذه الكرى .

ولم يخامرني ملل من الإصابات ، والانتحاب ، والارتعاد ، طوراً بعد طور . ومع أن قلبي ، الذي لم يزل لشبابه طائشاً أخضر العود ، لم يكن ناضجاً ولا خصباً بما يكفي ليولد من تلقاء ذاته مثل هذه الانفعالات الملتهبة والعلوية ، فإن انفعالاتها تلك إذ وقعت في قلبي كان لها أثر بائع من جدته ومن عذوبته أنى وقد شعرت بها ظننت أنى أجربها . ياله من خطأ ! كنت أنا الثلج وكانت هي النار . وكنت إذ أعكسها أظن أنى أولدها ، ومع ذلك فإن هذا الإشعاع إذ يرتد من أحداً إلى الآخر ، كان يبدو كدابة يخص الاثنان وأنه يحيطنا بجو شعور واحد .

كذلك انقضت تلك الليلة الطويلة من ليالى الشتاء . وما استغرقت تلك الليلة عندها وعندى إلا ما يستغرقه التند الأول الذي يقـول « إنى أحب » . ولقد بدا لنا ، عندما طلع النهار ، أنه جاء يقطع هذه الكلمة التي لم تكذب تبدأ .

ومع ذلك فقد كانت الشمس عالية فوق الأفق عندما تسلكت أشعتها
بين المصاريح الموصدة فكسفت بصيص المصباح . وما إن قنحت الباب
حتى رأيت أسرة الصياد بأسرها تصعد الدرج جريا .

إن الراهبة البروسيدية الشابة ، صديقة جرازिला ، أتت بعثت لها
برسالتها البارحة وباحت لها بنيتها في دخول الدير في اليوم التالي ،
اشتبهت في يأس قلبها ، فأوقدت في الليل أحد إختوتها إلى نابولي ليبلغ
أهل جرازिला قرارها . ولذا علموا بالعثور على ابنتهم ، وصلوا
على عجل ، فرحين أيما فرح . نادمين أيما ندم ، ليوقفوها على حافة
يأسها ، وليعيدوها معهم حرة ومصفوحا عنها .

جمت الجدة على ركبتيها بالقرب من السرير دافعة بذراعيها الاثنين
الطفلين الصغيرين اللذين اصطحبتهما لاستعطاف جرازिला ، ومحتمة
بجسديهما كأنما تحتضى بدرع يقيها ملامة حفيدتها . وارتقى الطفلان
في ذراعي "شقيقتهما في صراخ وعويل شديدين . ولذا نهضت
جرازिला كي تداعبهما وتعانق جدتها ، سقط المنديل الذي يعصب
رأسها ، وأبدى رأسها المجرد من الشعر . وعلى أثر رؤية هذا العدوان على
جمالها ، الذي فهموا معناه تمام الفهم ، ارتعدت أوصالهم . وانطلق
النشيج من جديد في المنزل . وجعلت الراهبة التي دخلت . تهدي
الجميع ونواصيهم . وجمعت الحصل المنزوعة من جبين جرازिला ،
ومست بها صورة العذراء طلوية ليأها في منديل من الحرير الأبيض .
ثم وضعتها ثانية في مزر الجدة . قائلة لها : " احتفظي بها . كي تريها "

إليها من آن لان . في نعماتها أو في بأسائها . ولكي تذكرها . عندما
تصبح لمن تهواه . أن بواكير اختلاجات قلبها ينبغي أن تكون دائماً لله
كما كانت له بواكير حسناتها الماثلة في هذه الخصلات .

- ٢٤ -

وفي المساء عدنا جميعاً إلى نابولي . فكانت الغيرة التي أبديتها
في سبيل العشور على جرازيللا ولناقازها في هذا الطرف قد ضاعفت
من حب المرأة العجوز والصيد إلى أبي . ومامن أحد منهما كان يشتبه في طبيعة
اهتمامي بأمرها وفي عاطفتها نحوى . وكانوا ينسبون نفورها كله إلى
بشاعة سيكو . وعقدوا الأمل على أن يقرر العقل والزمن هذا النفور .
ووعدوا جرازيللا ألا يلحوا عليها قط في شأن الزواج . حتى سيكو
نفسه توسل إلى أبيه ألا يتحدث في هذا الأمر . وكان يسأل ابنة عمته ،
مخشوعه ، وبسلوكه ، وبنظراته ، أن تغفر له أنه كان سبب شقاقنا .
وعاد الصغرى إلى المنزل .

- ٢٥ -

وما من شيء عاد يلقي أى ظل على محيا جرازيللا أو على سعادتي ،
اللهم إلا فكرة أن هذه السعادة سوف تنقطع عاجلاً أو آجلاً بعودتي
إلى بلادى . وعندما كان أحد يلفظ اسم فرنسا كانت الفتاة المسكينة
يقولها للشحوب كما أنها قد رأت شبح الموت . وذات يوم ، لدى دخولي
غرفتي ، وجدت جميع ملابس المدينة ممزقة إرباً وملقاة على أرضية

الغرفة خرقا . وقالت لى جرازيللا . جائية على ركبتها . ورافعة نحوى
عماها المتغير ، وأنا التى اقترفت هذه الفعلة أوه ، بربك لاتعنفنى . فكل
ما يذكرنى بأنك لا بد نارك يوما ثياب النوتية هذه يجعلنى فى أسوأ
حال يخيل إلى أنك سقطت قلبك الحالى لتتخذ قلبا آخر عندما
ترتدى ثياب الماضى ! .

بإستثناء هذه العواصف الهينة التي لم تكن تعصف إلا بسبب
وقدة حنانها . والتي كانت تسكن عندما تنسكب بضع عبرات من
عيوننا . انقضت ثلاثة أشهر على هذا النحور في غبطة خيالية . كانت
أقل حقيقة واقعية تمننا - قيمة بأن تحطمها تحطيا — كان فردوسنا قائما
فوق سحابة .

كذلك عرفت الحب . من دمة أترقق في مقلة طفلة .

77

ما كان أسعدنا معا عندما يتيمياً لنا أن نلقى تماماً أن نمة دنيا أخرى قائمة فيما يخرج عنا ، دنيا أخرى غير هذا البيت الصغير القائم على سفح البونيليب ، تلك الشرفة المشمسة ، تلك الغرفة الصغيرة التي كننا نشغل فيها لاهيين نصف النهار ، ذلك القارب الرائد في مريره الرهلى على الشاطئ ، وذلك البحر الجميل الذي كانت أنسامه الندية الرتيبة الممطرة تحمل لنا طرأته وأنغام مائه .

لكن وآسفاه... كانت ثمّة أوقات تعلّمنا فيها أن نفكر أن الدنيا

لا تنتهي هنالك ، وأن يوما ما سوف يشرق فلا يجدنا مجتمعى الشمل
تحت شعاع واحد للقمر أو للشمس . لأنى مخطيء لكثرة لومى جفاف
قلبى عندئذ إذا قيس بما شعر به منذئذ . الحق ، أنى بدأت أحب
جرازيلأ ألف مرة أكثر مما أقررت فى نفسى . ولو كنت لم أحبها
إلى هذا الحد ، لما كان الأثر الذى خلفته فى نفسى طيلة عمرى عميقا هذا
العمق ، أيا هذا الألم ، ولما أصبحت ذكراها ملاحمة بى مقرونة
بمثل هذه العذوبة ، مشوبة بمثل هذا الحزن . ولما أصبحت صورتها فى
ذاكرتى ماثلة هذا المثول وناضرة هذه النضرة . ومع أن قلبى
كان عندئذ مقدوداً من رمل فإن زهرة الحب كانت قد تأملت
فيه أكثر من موسم كما يتأمل الزئبق بالساحل الصغير على شاطئ
جزيرة لايسكيا .

- ٢٧ -

وأى عين مهما حرمت من الشعاع ، وأى قلب مهما خلق جامداً كان
لا يهبها ؟ كان يبدو أن جمالها يزداد من المساء إلى الصباح . كان نموها قد
توقف ، بيد أنها كانت تكتمل فى كل مفاتنها . مفاتن طفلة بالأمس
بمفاتن فتاة متفجرة الانوثة اليوم . كانت أعطافها المشوقة تتطور
فى لمح البصر ، وكان قوامها يلتف دون أن يفقد من تأوده شيئا . وما
كانت قدماها الخافيتان الجميلتان تغطآن الأرض التى تخطر عليهما بمثل
هذه الخفة .

وعاد شعرها ينبت بالعصارة القوية الأنيثة ، عصارة الاعشاب
البحرية النامية فى كنف أمواج الربيع الندية . وكثيراً ما تسليت

وَقِيَّاسُ نَمُوهِ بَأْنِ أَيْسَطِهِ مَلْفُوفًا حَوْلَ إِصْبَعِي فَوْقَ حَوَاشِي وَ بِلُوزَتِهَا ،
الْخَضْرَاءُ الْمُوشَّاةُ . وَابْيَضَّتْ بِشَرَّتِهَا وَتَحْفُضَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ
بِالْأَصْبَاغِ الَّتِي كَانَتْ مَسَاحِيْقُ الْعَقِيقِ الْوَرْدِيَةِ تَعْفُرُ بِهَا كُلَّ يَوْمٍ أَطْرَافَ
أَصَابِعِهَا . وَانْسَمَتْ عَيْنَاهَا وَجْهًا لَمَّا تَزْدَادَانِ فَتَفْتَحَانِ يَوْمَ إِلَى يَوْمٍ كَمَا نَمَّا
لِنَعْتَمِقًا أَفْقًا قَدْ لَاحَ طَاعِلِي حِينَ نَجَاةً .

وَكَانَ لَهَا مَعِيَ دُونَ قَصْدِ نَدَوَاتِ خَفَرٍ وَاسْتِحْيَاءٍ فِي سَكَنَاتِهَا
وَنَظَرَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بِهِ عَهْدٌ مِنْ قَبْلِ . وَلَقَدْ شَعُرْتُ بِذَلِكَ ،
وَكَثِيرٌ أَمَا كُنْتُ أَنَا نَفْسِي بِقَرَبِهَا صَامِتًا أَيْمَا صَمْتٍ مَرْتَعِدًا أَيْمَا ارْتِعَادٍ . حَقٌّ
لَتَخَالُنَا شَخْصَيْنِ ارْتَكَبَا الْمَعْصِيَةَ ، وَمَا نَحْنُ سِوَى طِفْلَيْنِ فِي أَوْجِ
السَّعَادَةِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذَا زَمَنٌ كَانَتْ مَسْحَةٌ مِنَ الْحُزَنِ تَسْتَخْفِي أَوْ تَتَبَدَّى
خَلْفَ هَذِهِ السَّعَادَةِ . وَلَمْ تَكُنْ نَعْرِفُ لِمَاذَا — وَلَسْكَنَهَا ، هِيَ ، كَانَتْ
نَعْرِفُ الْمَصِيرَ . كَانَ هَذَا هُوَ الشُّعُورُ بِقُصْرِ الْوَقْتِ الَّذِي بَقِيَ لَنَا لِنَقْضِيهِ
مَعًا .

- ٢٨ -

وَكَثِيرٌ أَمَا كَانَتْ جِرَازِيهَا ، بِدَلَا مِنْ أَنْ نَسْتَأْنِفَ عَمَلَهَا بِمَرْحٍ
عَقِبَ أَنْ تَتَوَلَّى لِإِلْبَاسِ أَخَوِيهَا الصَّغِيرَيْنِ وَتَزِينَهُمَا — كَانَتْ تَظَلُّ جَالِسَةً
عِنْدَ أَسْفَلِ دَعَامَةِ الشَّرْفَةِ ، فِي فِءِ الْأَوْرَاقِ الْعَرِيضَةِ لِشَجَرَةِ تَيْنٍ تَهْنُضُ
مِنْ أَسْفَلٍ حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَا فَوْقَ حَافَةِ الدَّعَامَةِ . وَكَانَتْ تَسْتَقِرُّ هُنَاكَ بِدَلَا
نَحْرًا ، زَائِفَةً الْبَصَرِ ، مُنْفَقَةً أَنْصَافَ أَيَّامٍ بِتَمَامِهَا . وَعِنْدَمَا كَانَتْ

جدتها تسألها عما إذا كانت مريضة كانت تجيب أنها خالية من العليل وإنما قد انقضا الملل قبل أن تزول العمل. ولم تكن تحب أن يستجوبها أحد عندئذ، كانت تشيخ بوجهها عن كل الناس فيما هداى . أما أنا فكانت تهدي في ملياً دون أن تقول لي شيئاً . وفي بعض الأحيان كانت شغافها تنفر جان كأنها قد تكلمت ، ولكنها كانت تتمم بالفاظ لا يفهمها أحد من الناس . وكانت ترى غضواً يسيرة ، بيضاء طورا . ووردية طورا . تسرى في أديم خديها وترقرقه مثل صفحة الماء الساجي النعسان تحتلج تأثراً ، عندما كنت أجلس بجوارها ، وأمسك بيدها . وأدغدغ برفق الأهداب الطويلة لعينيهما المغمضتين بكنف اليراع أو بطرف عود ريحان . عندئذ كانت تنسى كل شيء . وتنتطق في الضحك وفي الحديث كسابق الأوان إلا أنها كانت تبدو حزينة أسيفة عقب أن تمرح وتمرح معي .

كنت أقول لها أحياناً « جراذيل ، ماذا تشاهدين إذن كذلك ، هنالك فوق البحر خلال ساعات بطولها ؟ هل ترين هناك شيئاً لا نراه نحن ؟ » فكانت تجيبني « أرى هنالك فرنسا وراء جبال من الثلج » . وكنت أضيف « وماذا ترين إذن من جميل في فرنسا ؟ » وكانت ترد « أرى فيها شخصاً يشبهك ، شخصاً يسير ، ويسير . ويسير على درب طويل أبيض لا ينتهي . يسير دون أن يلتفت إلى الوراء . يسير دائماً . دائماً إلى الأمام ، وانتظر ساعات بطولها ، يداهني الأمل دائماً أن يلتفت كي يمود أذراجه متأثراً خطواته . ولكن لا يلتفت . ثم تخفى وجهها في حجرها . وعينها كنهه أناديهما بأحب أسماء التدايل إليها . فما كانت ترفع جبينها الوضاء .

عندئذ كنت أعود إلى غرفتي حزينا أنا نفسي أيا حزن . وكنت أحاول دائما أن أطلع كي أتلهى . واسكنى كنت دائما أرى صورتها قائمة بين عيني وبين الصفحة . وكان يحيل إلى أن الكلمات تتخذ صوتا وأنها تتنهد مثلما يتنهد قلبا نا وكثيرا ما آل بي الأمر إلى أن أبسكى وحدى واسكنى كنت أشعر بالخجل من السوداء التي تنتابني ولم أكن أقول لجر از بلا قط أنى قد بكيت . واشد ما كنت مخطئا ، قرب دمة منى تضى عليها خيرا جر از بلا .

- ٢٩ -

إني لأتذكر المنظر الذى أضنى قلبها أشد الضنى والذى لم تبرأ منه قط برة آتاما .

كانت قد ارتبطت منذ عهد بعيد بلحمة الصداقة مع فتاتين أو ثلاث فتيات يناهزنها فى العمر . وكانت أولئك الفتيات يقطن أحد البيوت الصغيرة فى البساتين . وكن يكوين ويرتقن أبواب دار تعليم الفتيات الفرنسيات . وكان الملك مورا قد أنشأ تلك الدار فى نابولى لبنات وزرائه وقواده . وكثيرا ما كانت الفتيات البروسديات أولئك يتحدثن من أسفل ، وهن يؤدين عملهن ، مع جر از بلا التي تطل عليهن من فوق سياج الشرفة ، وكن يرينها الجميل من أشغال الدنلا والمنسوجات الحريرية ، والقبعات ، والأحذية ، والأشرطة ، والأوشحة التي يجتلبنها أو يوردها لطلبات هذا الدير . وكانت صيحات دهش وإعجاب لا تنتهى .

وأحيانا كانت العاملات الصغيرات يجئن لاصطحاب جرازيل إلى
 القديس أو إلى صلوات الستار الموسيقية (١) في كنيسة بوزيليب الصغيرة
 وكنت أنطلق للاقاتهن عندما يأفل النهار ، تنهني دقات الناقوس المتواليّة
 إلى أن القديس يهيم بمنح البركة . وكنا نعود ونحن نمرح ونمزح على
 ساحل البحر ، بأن نتقدم في إثر الموجة عندما تنحسر ، وأن نفر أمام
 الموجة عندما تنتشر ، وقد اكتسبت أقدامنا بوبر من الزبد ، رباه لا
 لكم كانت جرازيل جميلة وقتئذ ، عندما ترتعد مخافة أن تبسل نعلها
 الجليدين المشيين برقائق من الذهب ، فتعدو نحوي فاتحة ذراعها إلى
 الأمام كأنما لتحتسني فوق قلبي من المرح المتلف إلى اعتناقها أو على
 الأقل إلى لعق قدمها .

- ٣٠ -

لاحظت منذ مدة أنها كانت تخفي عني شيئا من أفكارها لسمعه
 أذنيه . وكان لها أحاديث سرية مع صديقاتها الفتيات العاملات . كان
 الأمر بمثابة مؤامرة صغيرة غير مسموح بقبولها فيها .

وذات مساء ، كنت أقرأ في غرفتي ، على بصيص مصباح صغير
 من الفخار . وكان بابي المظل على الشرفة مفتوحا ليتمسك منه نسيم
 البحر ، فسمعت ضجة ، همسات مستطيلة بين الفتيات ، وضحكات
 مكبوتة ، ثم أنات مكتومة ، وألفاظ امتعاض ، ثم انفجارات جديدة
 لأصوات يتخللها فترات سكوت طويلة في غرفة جرازيل والطفلين . ولم
 ألق إليها كثير بال في أول الأمر .

(١) صلاة تؤدى في العصر أو في المغرب معجوبة بترانيل موسيقية .

بيد أن التسلّك نفسه الذى اصطنع فى كتم الهمسات ، ونوع السر الذى افترضت قيامه بين الفتيات أثارا فى نفسى حب الاستطلاع . فوضعت كتابى ، وأخذت مصباحى الفخارى فى يدي اليسرى وحيته بيدي اليمنى من لفحات الريح حتى لا ينطفئ . واخترق فى خطو أصم كاتما ديب قدمى فوق البلاط . وألصقت أذنى هلى باب جرازىلا . فسمعت ديب أقدام تدرع الغرفة ذهابا وحيثة ، وحفيف ثياب تطوى وتنشر وخشخشة المشابك ، والإبر ، ومقصات النساء اللاتى كن يضبطن الأشرطة ويشبكن الأوشحة ، وهذه الثروة ، وهاته الطنطنة الأصوات الغضة التى طالما سمعتها فى منزل أمى عندما كانت شقيقاتى يرتدين ثيابهن للرقص .

ولم يكن ثمة حفلة فى البوزيليب فى الغداة . ولم تكن جرازىلا قد خطر ببالها قط أن تبدي حسنها بالترين . بل لأنه لم يكن فى غرفتها مرآة . فقد كانت تتمرأى فى دلوهر الشرفة ، أو بالأحرى كانت لا ترى نفسها إلا فى عيني .

ولم يقاوم حب استطلاعى هذا السر . فدفعت الباب بركبتي . وانصاع الباب وظهرت ومصباحى فى يدي على العتبة .

وأطلقت الفتيات العاملات صرخة ، وهربن هروب سرب من الطير لا ئذات بأركان الغرفة ، كما نسا قد بوغن متلبسات بجمجمة ، وكن ما برحن بمسكات بأدوات الجريمة إحداهن بالحيط والأخرى بالمقص ، هذه بالزهور ، وتلك بالشرطة . أما جرازىلا ، وقد أوقفت فى وسط الغرفة فوق منصة صغيرة من الخشب ، وكأنا قد نهجرت لظهورى المفاجئ . فلم تستطع أن تفر . كانت حراء مثل الرمانة مـ

وغضت طرفها ، ولم تجرؤ على أن تنظر إلى ، ولا تسكاد تنفس . ولاذ
الجميع بالصمت ، في انتظار ما سوف أقول ، ولم أقل شيئا . فقد كنت
مستغرقا في الدهش ، وفي التأمل الصامت فيما رأيت .

كانت جراز يلا قد نهضت عنها ثيابها الصوفية الثقيلة ، وسترتها
السراة البروسيدية الطراز ، ونعلها المموهين بالذهب الخشبي العقب
الذين كانت تخرج فيهما عادة قدميها العاريتان . وكان قرطها السكير ان
كبر الاساور ملقيين بإهمال فوق سريرها مع ملابسها الصباحية .

وبدلا من هذا الرداء اليوناني المبيج ، الذي يواثم الفقر كما يواثم
الثراء ، والذي يترك الحرية والمرونة لجميع أعطاف المرأة ، بالجوب ،
المتدلية إلى منتصف الساق ، ومقورة ، الصدر وقصة الأكمام ، كانت
أتراب جراز يلا قد ألبسها ، بناء على توسلاتها ، ملابس وحلي فنانة فرنسية
في الدير تنافسها في العمر . كانت ترتدي ثوبا من الحرير المتموج ،
وحزاما ورديا ، وشاحا ، وإشارب ، أبيض ، وقبعة محلاة بأزهار
صناعية ، وحذاء من الستان الأزرق ، وجوربين من الحرير المخم يشفان
عن لون اللحم عند عقبي قدميها المستديرين .

وقد لبثت في هذا الثوب الذي فاجأتها ترتديه مرتبة ، كما لو كانت
قد فاجأتها نظرة رجل وهي عارية . وكنت أنا نفسي ألتصع لإيها دون
أن أستطيع تحويل عيني عنها ، ولكن دون أن تم لإشارة ، أو بادرة
تعجب ، أو ابتسامة ، مما خلفه تسكرها في نفسي من وقع . كانت دمة قد
انبعجت من قلبي . فقد فهمت على الفور تفكير الصبية العسة . لقد

خجلت من الفارق الطبقي بينها وبينى ، فأرادت أن تجرب ما إذا كان
تقارب فى الثياب يقرب مصيرينا فى عيني .

وقد أقدمت على هذه التجربة ، بمعاونة أترابها ، دون أن أدري ،
مؤملة أن تبدو بغتة أجمل هكذا فى عيني وأقرب إلى نوعى مما تعتقد
أن تكون فى ثياب جزيرتها ، وطبقتهما ، البسيطة . بيد أنها كانت مخطئة
وقد بدأت تدرك ذلك من سكوتي . واتخذ سجاوفا مسحة من الجوز
القائظ ، بل تقريبا من الدموع التى كشفت لى دفين هدفها وخيبة أملها .

ومع ذلك فإنها كانت كذلك جميلة أيا جال . وكان من شأن تفكيرها
أن تزيد جمالها فى عيني ألف مرة . بيد أن جمالها كان أشبه بهذاب
كان كأنه صورة لأولئك العذارى الشابات اللاتي رسمهن كوريج ،
مسمرات فى قائمة خشبية فوق كومة حطب تأهبها للاستشهاد ، متلويات
فى أغلاهن بغية الإفلات من النظرات التى تدنس عفتن ، وآسفا . . .
كان هذا بمثابة استشهاد أيضا عند جرازيل المسكينة ، استشهاد حبا .
كان موقفها يماثل سماءها ارتباكا ، كانت لا تحار ، حراكا ، خشية أن
تسقط عنها أزهارها ، أو أن تذهب هيبتها . وكانت لا تستطيع السير ،
فلكم كان حذاؤها يضغط على قدميها ويضفى على خطوها تعثرا خلافا
حتى لمكنت تقول إن حواء بجر الشمس هذه الساذجة وقد وقعت فى
حبائل أول دلال لها . ؟

— ٣١ —

وران الصمت هكذا فى الغرفة . لحظة وأخيرا ، وقد آلمنى أكثر

عما سرني هذا التدنيس للطبيعة ، تقدمت نحوها زاما شفتى زمة ساخرة
شيئا ما ، وناظراً إليها بتعبير خفيف من التأنيب والتهكم الرقيق ،
متظاهرا بأنى عرفتها بصعوبة في ظل تجميلها هذا ، قلت لها : كيف؟ أهذه
أننى يا جرازيل؟ أوه! من الذى كان يتعرف أبدا الحسناء البروسيدية
في هذه الدمية الباريسية؟ واستطردت في شيء من الغلظة : هيا بنا ، ألم
تستحي أن تشوهى هكذا ما خلقه الله في ردائه الطيبى رائعا هذه الروعة؟
عشنا تفعلين . تبا لك ! ان تكونى قط سوى فتاة أمواج ذات قدم
بحرية تزين رأسك أشعة سمالك الجميلة . يجب أن ترضى بذلك وأن
تحمدي الله عليه . إن ريش طائر القفص هذا لا يصلح قط لعصفور
البحر .

لقد آلمتها هذه الكلمة حتى فطرت قلبها . لم تفهم ما كنت أضمر
لعصفور البحر من إيثار شديد ، حسبت أنى اتحداها أنها لن تشبه يوما
حسنا من جنسى ومن بلدى . وظننت أن كل جهودها لتكون أبهى
جسنا من أجل وكي تخضع عيني عن حالها الرقيقة قد راحت هباء .
ودفعة واحدة انخرطت في البكاء . ولذا عمدت إلى الجلوس على السرير
مخبئة بحياها بأصابعها ، رجعت صويحياتها وهي كظلم أن يمر عن تشخيصها
من زيتها البغيضة . وقالت وهي ترتجف ، كنت أعرف جيدا أنى لست
سوى بروسيدية فقيرة ، ولكنى حسبت أنى إذا بدل زى ان أكون
مشارا لخنجلك لو تبعتك إلى بلدك . أرى أنه يتعين على أن أظل كما كنت
وأن أموت حيث ولدت . بيد أنه ما كان لك أن تلومنى على ما فعلت .

وعلى أثر هذه الكلمات انتزعت على مضض الأزهار والقبعة
« الإشارب » وألقتهما بعيداً عنها في حركة غيظ وحنق ، ثم جعلت تطوها .

فما تقدم موجهة إليها اللوم مثلما فعلت جديتها بألواح الزورق بعد الغرق .
ثم هزمت صوني ونفخت القنديل الذى فى يدي ، حتى لا أراها مدة
أطول فى هذا الثوب الذى لم يرقى .

لقد شعرت أنى كنت مخطئا إذ مازحتها بعنف يمازى الحد ، وأن
المزاح كان مجرد . وسألتهما الصفيح . قلت لها : إني ما زجرتها هكذا
إلا لأنى أجدها كبروسيدية أفن منها ألف مرة كفرسية . وكان هذا حقا ،
ولكن سبق السيف العذل . فلما عادت تسمعنى ، إذ انخرطت فى التثبيج .
وجعلت أترابها يخلعن ثيابها . ولم أرها بعد ذلك إلا فى الغداة ،
كأنت قد عادت إلى ارتداء ثيابها الوطنية ، ولكن عينيها كانتا حراوين
يفعل ما كلفها هذا المزاح من دموع طول الليل .

- ٣٢ -

ونحو ذاك الوقت نفسه ، بدأت جرازيللا توجس حذرا من
الرسائل التى أتلقاها من فرنسا ، مستريية تماما فى أن هذه الرسائل
تستدعينى . ولم تكن تجسر على أن تخفلسها منى ، فإلى هذا الحد كانت
صديقة الطوية وليس من شيمتها المخادعة حتى فى سبيل حياتها . ولكن
كأنت تحتجزها أحيانا تسعة أيام ، وتشبكها بإحدى دبايسها المذهبة
سخاف صورة العذراء المعلقة على الجدار بجوار سريرها . كأنت تحسب
أن للقديسة العذراء وقد رقت لكثير من صلواتها التساعية من أجل
حبنا سوف تغير لخرى هذه الرسائل بمعجزة . وتحول أوامر العودة
إلى دعوة للبقاء بقربها . وما من واحدة من هذه التديسات الصغيرة
الورقة خفيفة حتى ، وكأنت جميعها تزيدها معزة عندي . ولكن
نظرا لسهولة تدنيها .

و ذات مساء فى أواخر شهر مايو قرع الباب قرعا عنيفا ، وكانت الأسرة كلها نائمة . وذهبت لأفتح . كان صديق ف . . وقال لى د جئت أبحت عنك . هاك خطاباً من أمك . سوف لا تعصاه . و لقد أمرت بإعداد الجياد لمتصف الليل . والساعة الآن الحادية عشرة . فلنرحل ، وإلا فلن نرحل قط . وهذا امرى يقضى على أمك . . وأنت تعرف إلى أى مدى تعدها أسرتك مسئولة عن كل أخطائك . واطالما ضحت من أجلك ، فلنضح أنت لحظة من أجلها . وأقسم لك أنى سوف أعود معك لننقى الشتاء وسنة أخرى طويلة هنا . ولكن يجب أن تظهر بين أسرتك ، وأن ترضخ لأوامر أمك .

وشعرت بأنى قد ضحت . قلت لى د انتظرنى هنا ، رجعت إلى غرفتى وألقيت ثيابى فى حقيبتى على عجل . وكسبت إلى جرازىلا . قلت لها كل ما استطاع حنانى أن يعبر به عما يحيش بقلب ابن ثمانى عشرة سنة ، وكل ما استطاع العقل أن يطلبه من فتاة مخلصه لأمها . وعاهدتها كما عاهدت نفسى ، أن أكون بقربها قبل أن ينتضى الشهر الرابع ، وأنى لن أفارقها بعد ذلك . وإذ طويت الرسالة ، اقتربت بخطوات صامتة وجثوت على ركبتى على عتبة باب غرفتها ، ودسست القصاصه إلى غرفتها من تحت الباب ، وازدردت الغصه الباطنة التى كانت . . تخنقنى خنقا .

ونأبط صديقى ذراعى ، وأنفضنى واقتادنى ، وفى تلك اللحظة فتحت الباب جرازىلا التى أفزعته ولا شك هذه الجلبة غير المألوفة . وتعرفت الصلبة المسكينة على صديقى . وأبصرت حقيبتى التى كان يحملها

أحد الخدم على كنفه فهدت ساعديها ، وأطلقت صرخة ذعر ، ووقعت فوق الشرفة فاقدة الوعي .

فوثبنا نحوها . وحملناها دون أن ندري إلى سريرها . وتقاطرت الأسرة كلها . وطفقوا يرشون بالماء وجهها . وينادونها بجميع الأصوات العزيزة عليها . إلا أنها لم تستعد رشدها إلا على صوتي . وقال لي صديق وهأنذا ترى أنها على قيد الحياة . لقد تحممت الصدمة ، إن المزيد من الوداعات الطويلة لن تكون إلا صدمات مضادة أهول وقعا . وفك ذراعيه الباردتين من حول عنقي وانتزعني من الدار انزاعاً . وبعد ذلك بساعة كننا نطوى في ظل السكون وفي هدأة الليل الطريق إلى روما .

- ٣٤ -

كنت قد تركت لجرانزىلا كثيراً من العناوين في الرسالة التي دججتها لها . ووجدت رسالة أولى منها في ميلانو . وكانت تقول فيها إنها سليمة البدن سقيمة القلب ، غير أنها تثق بكلمتي وسوف تنتظرنى آمنة مطمئنة نحو شهر نوفمبر .

ولما بلغت ليون وجدت رسالة ثانية منها أشد نقاء وأهمن اطمئنانا . وكانت الرسالة تنطوى على بعض أزهار القرنفل الأحمر التي كانت مستنبئة في أصيص من الفخار فوق دعامة الشرفة على مقربة من غرفتي ، والتي كانت ترشق زهرة منها في شعرها يوم الأحد . ترى أكان ذلك لترسل لي شيئاً كان يؤثر في قلبها ؟ أم كان عقاباً دقيقاً مستخفياً في ظل رمز ومقصودا به تذكيري أنها قد ضحكت شعرها في سبيل ؟ . ثم مكشئت بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر دون أن أتلقى أية رسالة .

وكننت أفكر في جرازيل كل يوم . وكننت من معا الرحيل ثانية لى لى
لإيطاليا فى مستهل الشتاء التالى . وكنان مضاياها الحزين الساهر يترامى
لى إبان ذلك كطيف ندم ، وأحياناً أيضاً كطيف عتاب رقيق . وكننت
فى تلك السن الجمادة التى يثير فيها الطيش والتقليد خجل الشباب من
خير مشاعره ؛ سن قاسية تنهارى فيها فوق الرمل أجل عطايا الله ، الحب
الخااص والعواطف البريئة ، وتذروها رياح الدنيا ذرو الدقيق . كان
زهو أصدقائى هذا الردى . والساهر معاً كثيراً ما يصادع فى نفسى
الحنان المسكنون والحنى فى أعماق فؤادى . ما كننت أجرؤ على الاعتراف
دون أن أخجل ودون أن أنعرض للسخرية والتهكم أيا كان اسم ومكانة
مناطق أسنى وأشجائى . أبدا ما كانت جرازيل منسية وإنما كانت
محبوبة فى حياتى . هذا الحب الذى كان يسحر فؤادى ، كان يضائل
من احترامى .

إن ذكرها التى كننت أراها وأغذيها فى نفسى فى العزلة فقط .
كانت تطاردنى فى المجتمع كأنها وخن الضمير ! لىكم أخجل اليوم من
أنى خجلت آنئذ ، إن شعاع غبطة واحد أو عبدة واحدة من عينها الظاهرة
كانت أؤمن من تلك النظرات ، من كل تلك المغازلات ، ومن كل تلك
البيسات التى أوشكت من أجملها أن أضحي بخيالها . آه . إن الدواب
اليفاع لها جز عن أن يحب ! لأنه لا يعرف قيمة أى شىء ! لأنه لا يعرف
السعادة الحقة إلا بعد أن يفقدها ! الأشجار الغضة بالغابة فيها عصارة
أكثر جنونا وظل أكثر تنقلا ، أما قلب السندياتة العجوز فأكثر نارا .
إن الحب الصادق هو ثمرة الحياة الناضجة . والمرء فى الثامنة عشرة
لا يعرفه وإنما يتوهمه . وفى الطبيعة النباتية عندما تأتى الثمرة تسقط

الأوراق ، ولعل الأمر كذلك في الطبيعة البشرية . كثيرا ما فكرت .
في ذلك منذما جعلت أعدد الشعرات البيضاء تكلل رأسي . ولقد لمحت
نفسى على أنى لم أعرف عندئذ قيمة زهرة الحب هذه . ما كنت إلا
كبيرا . والكبير أعق الرذائل وأفساها لأنه يثير الحُجل من السعادة !

- ٣٥ -

و ذات مساء في أوائل نوفمبر ، سلبت إلى إثر عودتى من حفلة ساهرة .
قصاصة وحزمة كان قد أحضرهما لى مسافر فادم من نابولى من محطة .
البريد عندما غير جياده فى ما كونه . كان المسافر المجهول يخطر فى أنه .
كلف بإبلاغى رسالة هامة من قبل أحد أصدقائه ، مدير أحد مصانع
العقيق فى نابولى ، وقد أدى الرسالة بمروءه ، وإنما لم يسأل أن يلغائى .
لأن الأنباء التى يحملها لى محزنة مشثومة ، ويرجونى فقط أن أبلغه .
فى باريس أنى تلقيت الحزمة .

فضضت الحزمة مر تعشا . وكانت تتضمن — خلف الغلاف الأول —
رسالة أخيرة من جرازىلا ، لانتوى غير الكلمات التالية : « يقول
الطبيب لى سأموت قبل انقضاء ثلاثة أيام . أود أن أقول لك الوداع
قبل أن تخور قواى . أوه ! لو أنك كنت هنا ، إذن اعشت ،
ولكنها إرادة الله ، سوف أكلك عاجلا ودائما من عليين . فلتعشق
روحى . ستكون معك طيلة عمرك . وإنى أدع الك شعرى الذى قصصته .
ذات ليلة من أجلك . فلتكرسه لله فى إحدى كنائس بلدك حتى تكون
بضعة من ذاتى بالقرب منك . »

- ٣٦ -

مكثت مشلولا معدوما ، ورسالتها فى يدى ، حتى طلع النهار .

لم تواتني القوة قبلئذ على فض الغلاف الثاني . وكان ينطوى على شعرها الجليل كله بالحالة التي كان عليها ليلة أن أرتنيه في السكوخ . وكان لا يزال مختلطا ببعض أوراق الخلنج التي كانت قد لصقت به ليلئذ . وفعلت ما أوصت به في أمانيها الأخيرة . ومنذ ذلك اليوم انتشر ظل موتها على حياي وعلى شياي .

وبعد ذلك باثني عشر عاما عدت إلى نابولي وجعلت أقتني أثرها ، ولم أجد لها أثرا في مارجليتا ولا في بروسيدا . كان البيت الصغير القائم على صخور ساحل الجزيرة قد انهار أطلالا . فما عاد سوى كتلة من الصخور الغبراء فوق قبو يصمى فيه الرعاة عزاتهم أثناء الأمطار . إن الزمن يحو ما فوق الأرض بسرعة . ولكن لا يحوق قط آثار حب أولي القلب الذي اخترقه .

أي جرازيل المسكينة ، كم من أيام مضت منذ تلك الأيام ! لكن ما من شيء غير ظهورك الأول في قلبي . فكلما تقدم في العمر ازدادت منك قربا بفكري . إن ذكراك مثل نيران قارب أبيك هذه . التي يخلصها المدى من كل دخان . والتي تزداد تألقا كلما ازدادت تأيا عنا . لست أدري أين يرقد جثمانك . ولا ما إذا كان أحد لا يزال يبكيك في بلدك . ولكن لحذك الحق في ذاتي . ففيها قد ضمنت ووريت بأكملك . وليس عبثا قط أن اسمك يؤثر في قلبي . إنني أحب اللغة التي يلفظ بها . وإن ثمة دائما في شغاف فؤادي عبرة . تنسكب قطرة قطرة . أو تساقط خفية على ذكراك لتتمشها وتبقىها في روحى حية عطرة .

الناشر
دار الفكر العربي

 Bibliotheca Alexandrina



0385782